ذاكرة الأيام الأولى... قبل أن تبكي مضايا

م.علي محمد النمر

تنويه المؤلف

هذه الرواية عملٌ أدبيّ يستلهم من الواقع السوري سنواتٍ من الألم والبطولة، ويستند إلى أحداثٍ حقيقيةٍ عاشها أبناء هذا الوطن، دون أن يقصد الإساءة إلى أيّ مكوّنٍ من مكوّنات الشعب السوري، أو الانتقاص من معاناة أحدٍ منهم.

كلّ ما فيها محاولة صادقة لتوثيق الوجع الإنساني كما هو، بعيدًا عن التعميم أو الاتهام، وبقلبٍ يؤمن بأنّ الكلمة يمكن أن تكون شاهدًا لا قاضيًا، وذاكرةً تحفظ لا سلاحًا يجرح.

إنّ اختلاف وجهات النظر أو الخلفيات في النص لا يمثّل بالضرورة رأي الكاتب، بل هو انعكاسٌ لتنوّع الأصوات التي شكلت مأساة واحدة اسمها سوريا

أيام قبل أن يبدأ كل شيء

اسمي فارس.

عشت في مضايا، تلك البلدة الصغيرة المحاطة بالجمال والصمت، كانت بالنسبة لي مجرد مكان أركض فيه خلف أحلامي الصغيرة، أسمع أصوات الجيران تتداخل مع صوت أمي وهي تخبز على التنور. وتملأ البيت برائحة دافئة تشبه حضنها.

أبي نقيب في الجيش السوري، يعمل في قسم صغير يتبع شؤون المنطقة.

يرتدي بزته العسكرية كل صباح، يغادر قبل أن تشرق الشمس، ويعود مع الغروب متعبًا، غالبًا صامتًا، لا يتحدث كثيرًا عن عمله، لكن حضوره في البيت كان يشبه ثقل الجبال... لا يُرى لكنه دائم.

أمي، امرأة لا تنكسر. صلبة كجدران بيتنا الطيني، وحنونة كالماء البارد في صيف مضايا الحار.

أنا الأوسط بين إخوتي: سامي، أخي الأكبر الذي يدرس في الجامعة، وليلى الصغيرة، لم تتجاوز السابعة بعد، تملأ البيت ضحكًا ولعبًا وكثيرًا من الفوضى المحببة.

في الحارة، كان لي أصدقاء: عمر ومازن، نلعب في الأزقة الترابية، نركض خلف كرة مهترئة، ونضحك كأن لا شيء في العالم يمكن أن يغيرنا.

كانت الحياة بسيطة، ممتلئة باللحظات التي تصنع الطفولة... ولكن، شيئًا ما، خفيًا، كان يدور حولنا.

الناس يتحدثون بصوت منخفض، ويتوقفون عندما نقترب.

أسئلة لا تُطرح، ونظرات تحمل شيئًا يشبه الخوف، لكن لا اسم له.

كنت أشعر بذلك دون أن أفهمه... كأن العالم يخفي عني شيئًا.

قبل أن تكبر الأسئلة

كنت أستيقظ على صوت أمي، لا على المنبّه.

المنبّه غالبًا لا يعمل... لأن الكهرباء تقرر أن تأخذ إجازة متى شاءت.

– "فارس، قوم... رح تتأخر عالمدرسة!"

تقولها وهي تضع الشاي على الصاج، قرب رغيف مدهون بالزيت والزعتر.

أحيانًا كنا نأكل على ضوء الشمعة.

كنا نضحك على ظلالنا التي تتراقص على الحائط، دون أن ندرك أن هذا الضوء البسيط ليس رومانسية بل تعويض عن غياب شيء أكبر.

في المدرسة، كنا نرتدي نفس القمصان الزرقاء، ونضع نفس الحقائب الرخيصة التي كانت تحكي قصصها من الخياطة المهترئة.

كان المدرّس يدخل، يحمل في عينيه تعبًا لا يشرحه، ويبدأ الدرس بصوت مبحوح.

أكثرنا لم يكن يملك كتبًا جديدة. كنا نتقاسم صفحات ممزقة، وننسخ واجباتنا من دفاتر الآخرين.

في طابور الصباح، كنا نردد النشيد الوطني بصوت جماعي، لكن العيون... كانت تقول أشياء أخرى.

كنت أرى بعض الطلاب يختلسون النظر حولهم، وكأنهم يتساءلون: لماذا لا نشبه الأ طفال في التلفاز؟

في الحي، كان عمر يقول إن أباه يعمل ثلاث وظائف ويعود ليلًا كي "نعيش".

وكنت أرى أم مازن تقف أمام دكان أبي حمدي، تشتري على الدفتر – "سجّل يا حمدي، آخر الشهر بيوفيها أبو مازن".

كنت أظن أن "آخر الشهر" هو يوم سحري تحل فيه كل المشكلات... لكن الكبار كانوا

يعرفون أكثر.

أبي كان يتحدث عن "السوق السوداء" أحيانًا، بصوت خافت، أمام أمي.

كنت أظن أن السوق السوداء مكان ملون بالأسود... لكن ما كان يُقلقه ليس اللون، بل الأ
سعار.

ذات مرة انقطعت الكهرباء ثلاثة أيام متواصلة.

حاولنا إشعال الموقد الصغير في المطبخ، لكن الغاز نفد.

أمي خبزت على الحطب، وأبي سافر إلى دمشق ليجلب جرة غاز "بالواسطة".

وليلة أخرى، أطفأ أبي التلفاز عندما ظهرت قناة الأخبار.

قال وهو ينظر نحوي: "نام بكير، عندك مدرسة"، لكني كنت قد رأيت وجهه في المرآة...

كان خائفًا.

الحياة كانت تتحرك، لكنها لا تتغير.

نحن نكبر، والأسعار تكبر معنا، والشكوى تصبح جزءًا من الأحاديث اليومية:

"ما في كهربا."

"البنزين ارتفع."

"ما في شغل."

"الله يستر."

لكننا، نحن الصغار، كنا نظن أن هذا هو الطبيعي.

أن الحياة هي أن تنتظر الكهرباء، وأن تأكل ما تيسر، وأن تخفي أسئلتك إذا تجاوزت
الخطوط التي لا ترى.

لم أكن أعرف وقتها أن الطفولة قد تكون مرآة لوطن كامل.

وأنني كنت أكبر في ظلال ضوءٍ خافت...

قبل أن تشتعل النار حقًا.

أصوات لا نفهمها

كان البرد في شتاء 2011 يلسع وجوهنا ونحن نركض خلف كرة من قماش، حشوها ما تبقّى من جوارب قديمة.

مضايا كانت هادئة، لكن شيئًا غير مرئي بدأ يثقل الهواء.

جلست مع عمر ومازن على حافة الرصيف، نكسر بذور عباد الشمس بأسناننا ونرمي القشور إلى حفرة مليئة بماء المطر.

قال عمر فجأة، وهو ينظر إلى شاشة صغيرة في يده:

— في ناس عم يتظاهروا بتونس... وشخص حرق حاله."

نظرت إليه بدهشة، ولم أفهم تمامًا.

– "ليش؟"

– "بيقولوا مشان شُرَطِي ضربه... والناس طلعت عالشارع."

ثم أضاف، كمن ينقل سرًا ممنوعًا:

– "كمان بمصر... ومبارك صار بخطر."

كلمة "مبارك" كانت ثقيلة.

كنت قد سمعتها من التلفاز السوري، لكن على نحو مختلف تمامًا... كان يُعرض كـ" صديق"، لا كديكتاتور

كلمة "الجزيرة" كانت تُقال همسًا. وكأنها قناة ممنوعة لكنها ساحرة، تقول ما لا تقوله

الشاشات الرسمية.

لم أكن أفهم تمامًا ما يجري، لكن وجه عمر كان فيه شيء جديد... فضول وخوف

مازن كان صامتًا. وعندما سألته، قال فقط:

— "بابا قال ما بصير نحكي بهيك قصص... حتى بين بعض."

هذه الجملة تكررت كثيرًا على مسامعي تلك الأيام.

"لا تحكي"، "لا تسأل"، "خليك بحالك".

في المدرسة، جاء المدير إلى الصف وطلب منا أن نحفظ شعارات جديدة.

قال إننا سنشارك في "مسيرة دعم للقيادة"، وإن هذه مشاركتنا "الوطنية".

وزّعوا علينا أعلامًا ورقية، وصورًا للرئيس، وطلبوا أن نهتف بها في ساحة البلدة.

كنا لا نزال صغارًا، لا نفهم معنى "تأييد" ولا "سيادة الرئيس"، فقط نردد ما يُطلب منا كي لا ثوبّخ.

سألت أمي في المساء، ونحن نطوي البطانيات على الشرفة:

— "ليش عم نطلع بالمسيرة؟ شو يعني نؤيد؟"

لم تُجبني فورًا. نظرت إليّ، ثم قالت بصوت منخفض:

— "كل الطلاب رح يشاركوا... خليك متل الكل، وما تسأل."

لكنّي سألت أبي، وكان جالسًا يُلمّع حذاءه العسكري، وجهه غارق في صمته المعتاد.

— "بابا... ليش في ناس عم يتظاهروا ببلاد تانية؟"

توقف لحظة، ثم تابع عمله دون أن ينظر إليّ.

قال بجفاف:

— "هالسيرة لا تعيدها. لا إلي، ولا لحدا. وبتنسى إنك سمعت عنها."

كنت أراقب وجهه... لا غضب، لكن فيه شيء أثقل من الغضب.

خوف؟ قلق؟ لم أكن أعرف، لكنني شعرت أنني قلت شيئًا خطيرًا، دون أن أقصد.

في اليوم التالي، خرجنا في المسيرة.

كنا نصطفّ في طابور طويل، رجالٌ غريبون يراقبوننا من الخلف، ومعلمون يصرخون: "بصوت أعلى!"

الهواء بارد، ويدي متجمدة، لكنهم أصرّوا أن نرفع الصور ونهتف.

لم أكن أصدّق أن هذا هو "الواجب الوطني".

بعد العودة، جلسنا في الصف، توزعت علينا علب عصير وكلمات مديح.

قال المعلم بابتسامة مصطنعة:

— "أحسنتم يا أبطال... هيك منكون أولاد البلد بحق."

في تلك الليلة، لم أستطع النوم.

كنت أفكر، لماذا لا يريد الكبار أن نتكلم؟

لماذا يردّون على الأسئلة بالصمت أو الخوف؟

لماذا يبدو كل شيء حولي غير قابل للفهم، وغير قابل للكلام؟

شيء ما كان يتغيّر... في الشوارع، في المدرسة، في وجوه الناس...

حتى أنا، بدأت أشعر أني لم أعد كما كنت.

الحي الذي يخاف أن يتكلم

في صباحٍ بارد، كنت ألعب مع ليلى أمام باب البيت، نرسم بأصابعنا أشكالًا على زجاج السيارة المغطى بالضباب.

صوت أبي كان يأتي من الداخل، يتكلم مع أمي بصوت منخفض على غير عادته، وكأن الحيطان تسمع.

لم أميّز كل الكلمات، لكن اسم "أبو نزيه" تكرر كثيرًا.

أبو نزيه، بائع الخضار، رجل طيب، ضاحك، يعرفنا جميعًا بأسمائنا.

قال أبي:

— "أخدوه عالمفرزة... وما رجع إلا بعد يومين."

سألت أمي بخوف:

— "ليش؟ شو قال؟"

رد أبي وهو يفتح النافذة وينظر إلى الخارج كمن يتأكد ألا أحد يسمعه:

— "ولا كلمة... رجع ساكت. شكله فهم الرسالة."

لم أفهم ما الرسالة التي يمكن أن تُقال دون كلمات، لكنني شعرت بشيء ثقيل في البيت ، كأن شيئًا غير مرئي خيّم على المكان.

في المساء، ذهبت مع أمي للسوق، فرأينا أبو نزيه يقف عند بسطته، لم يعد يرفع صوته كالسابق، لم ينادِ على البندورة ولا على الخيار.

كان يُرتّب الخضار بصمت، وعيناه لا تلتقيان بعيني أحد.

أردت أن أسأله:

— "عمو، وين كنت؟"

لكن يد أمي أمسكت بيدي قبل أن أنطق، وضغطت عليها برفق، وقالت بصوت شبه هامس:

— "لا تسأل يا فارس."

ذلك المساء، فهمت شيئًا صغيرًا:

أن هناك أسئلة... لا يُسمح لنا أن نطرحها.

وأن هناك رجالًا... لا يعودون كما كانوا إن عادوا.

في الحارة، صار الكبار يبتسمون بلا كلام، ويتبادلون التحايا بعينين قلقتين.

حتى ضحكات الجيران بدأت تُقال بنصف صوت.

صار كل شيء يُقال كأن خلفه جدارًا يُراقب.

كنت لا أزال طفلًا، لكنني بدأت أُدرك أن في هذه المدينة شيء خفي، لا يُرى ولا يُقال، لكنه حاضر دائمًا... كبرودة الشتاء التي لا يمكن إيقافها.

الطابور أطول من أحلامنا

لم أكن أحبّ الطابور الصباحي، خاصة في الشتاء، حين كنا نقف على البلاط البارد وأحذيتنا مبتلة من وحل الطريق.

المدير، الأستاذ عزام، كان يظهر دائمًا فجأة، يقف عند المدخل، يداه خلف ظهره، ووجهه متجهم كأننا في ساحة حرب.

ذات صباح، جاء مبكرًا أكثر من المعتاد.

أمرنا أن نقف في صفوف مستقيمة، وألا نتحرك أو نتكلم.

ثم رفع صوته:

— "قبل النشيد، كل واحد يردد وراي... قائدنا إلى الأبد، حافظ الأسد!"

تردّد بعضنا.

ضرب بعصاه على الأرض:

— "قلت وراي!"

رددنا.

ثم أتبعها بصوت أعلى:

– "وقائد مسيرتنا، سيادة الرئيس بشار الأسد!"

كنت أردد مثل الباقين، بصوت منخفض. ليس لأنني لا أريد، بل لأني لا أفهم تمامًا لماذا يجب أن أقول ذلك.

رأيت المعلمة "وداد" تراقبنا من الشرفة. كانت من القلائل الذين يبتسمون، لكنها في ذلك الصباح لم تبتسم. فقط نظرت، وسرعان ما اختفت.

في الصف، بدأوا يطلبون منا أن نحفظ شعارات معينة.

قالوا إننا سنشارك مرارا في "مسيرات تأييد"، وإنه واجب وطني.

وزعوا علينا أوراقًا مطبوعة، فيها صور للرئيس، وأعلام، وعبارات مثل:

"سوريا الله حاميها"

"بالروح بالدم نفديك يا بشار"

كنت أقرأها ولا أفهم، وكنت أرى المعلم محمود يصرّ على أن نحفظها كأنها جدول الضرب.

قال لنا:

– "يلي ما بيرفع الصورة، بيتسجل اسمه عند المدير."

ولم نكن نعرف ما يعني أن يُسجّل اسمك عند المدير، لكننا نعرف أنه شيء سيّئ.

في الساحة الخلفية، كنا نسمع أحيانًا المعلمين يتحدثون.

ليس كثيرًا، ولكن بصوت خافت، وكأنهم لا يثقون حتى بالجدران.

مرّة قال أحدهم لآخر:

– "ابن أختي كتب بوست عالفيس، أجت المخابرات أخدته من الجامعة!"

ثم نظر حوله، وانخفض صوته أكثر.

بدأت ألاحظ أشياء غريبة.

صديقي محمد لم يأتِ إلى المدرسة يومًا، فقيل إن والده مرض فجأة... لكنني سمعت ا لأستاذ محمود يهمس لآخر:

— "أبوه محسوب عالتيار التاني... لازم ينتبهوا."

ما هو هذا التيار؟ لم أفهم.

لكني بدأت أفهم شيئًا آخر:

أن المدرسة ليست فقط مكانًا للدراسة... بل مكانًا يراقبونك فيه، يقيسون كلماتك، صوتك،

وحتى ملامح وجهك.

صرت أنظر إلى الصور على الحائط بطريقة مختلفة.

كأنها تراقبني.

أشياء لا تقال

في أحد الأيام، جاء أخي سامر من دمشق لزيارة قصيرة.

كانت ملامحه متعبة، لكنه يبتسم كثيرًا، كأن وراء الضحكة شيئًا لا يريدنا أن نراه.

أحضر معه بعض الكتب، وشوكولا صغيرة لليلى، وقبّل رأس أمي، ثم جلس قرب المدفأة صامتًا.

سألته أمي:

— "كيف الجامعة؟"

قال وهو ينفخ في يديه ليدفئهما:

— "ماشي... كل شي تمام."

لكن عينيه كانتا تقولان غير ذلك.

بعد العصر، جاء اثنان من أصدقائه. جلسوا في غرفة الجلوس، وأغلقوا الباب.

كنت أراقبهم من فتحة الباب الصغيرة.

يتكلمون بصوت منخفض، يضحكون أحيانًا، لكن بقلق.

سمعت أحدهم يقول:

— "قدّام الناس إحنا مؤيدين... بس جوّا؟ الله بيعلم."

رد سامر وهو يشعل سيجارة:

— "الكذب ما رح يدوم... الناس عم تغلي من جوّا."

دقّ أبي الباب فجأة. سكتوا فورًا.

فتح الباب، دخل، نظر إليهم ثم قال بصوت هادئ لكن صارم:

— "حكيتلك يا سامر، دير بالك علسانك."

أومأ سامر برأسه، ولم يقل شيئًا.

حين خرج أبي، سمعت صديقه يهمس:

— "أبوك ضابط... يمكن خايف عليك أكتر من حاله."

ضحك سامر بلا صوت، وقال:

— "كلنا صرنا نخاف من حالنا."

في المساء، دخلت غرفته بهدوء. كان يكتب شيئًا في دفتره.

سألته بفضول:

— "ليش الكبار خايفين؟ شو صار؟"

نظر إليّ طويلا ً، ثم قال بحدة لم أعهدها منه:

— "فارس، لا تسأل هالأسئلة."

قلت بإصرار:

— "بس إنت حكيت اليوم مع رفقاتك... سمعتكن."

صاح بصوت منخفض:

— "قلت لا تسأل! ما كل شي لازم تفهمه!"

سكتُ، وخرجت من الغرفة.

في تلك الليلة، لم أنم بسرعة.

أدركت أن سامر، الذي كنت أراه أقوى الناس، خائف أيضًا.

وأن في هذا البيت، كما في كل شيء حولي،

الكلمات تقصّ، والعيون تشيح،

والأسئلة تُترك معلقة... في سقف الخوف.

"خطوة أولى نحو التغيير"

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً. صوت الريح الباردة يصفر خلف النوافذ، ورائحة الشاي الساخن تتصاعد من كوب على الطاولة بيننا.

عمار قلب بين يديه ورقة كتبنا عليها شعارات محتملة. تمتم:

— "لو كتبنا بس 'حرية للمعتقلين'؟ بسيطة، ما فيها شي كبير صح ؟."

نبيل ضحك بسخرية:

— "بسيطة؟! بهاي البلد ما في شي بسيط يا عمار. بتقول كلمة 'حرية'، بيفتشوا بيتك وبيخفوك لسنين."

صمتّ للحظة، ثم قلت بهدوء:

— "بس مع هيك، بدنا نبدأ. عم تشوفوا شو عم يصير حوالينا؟ تونس... مصر... حتى البحرين. الناس ما عاد تسكت."

عمار تمتم:

– "ونحن ؟ لساتنا بنخاف نحكي بالمقاهي... لساتنا بنطلع من القعدة إذا حدا جاب سيرة الأمن."

نبيل نظر نحوي وقال:

– "سامر... ليش عم تعمل هالشي؟ عن جد؟ شو السبب اللي خلاك توصل لهون؟"

أخذت نفسًا عميقًا.

– "لأني تعبت. من كلشي. من أبو وليد جاري يلي اختفى من خمس سنين وما حدا عرف وينه. من بنت خالتي يلي ما قدرت تكمل جامعة لأنها رفضت تكون بعثية. من الفساد، من الرشوة، من الطوابير عالخبز، ومن الكهربا يلي بتيجي بس ٣ ساعات بنهار. تعبت من خوفي حتى من ظلي."

أكملت وأنا أنظر للنافذة:

– "من لما كنا صغار، ربونا عالصمت. حتى لما المدرّس يسبك، لازم تسكت. لما الشرطي يوقفك بلا سبب، لازم تقول حاضر. لما تشوف الظلم، تنزل راسك. بس ليش؟ شو عملنا لنعيش هيك؟"

عمار وضع الورقة على الطاولة، وقال:

– "وإذا نزلنا؟ شو بيصير؟"

قلت:

– "يمكن يعتقلونا، يمكن نختفي. بس إذا ما حكينا... ما رح يتغيّر شي."

نبيل تمتم بصوت منخفض:

– "بدنا نكسر حاجز الخوف ."

قلت بحزم:

– "ما رح نطالب بإسقاط النظام، ولا رح نواجه حدا. بس بدنا نقول: نحنا بشر. بدنا نعيش بكرامة. نبدأ بـ"حرية للمعتقلين". بسيطة... وصعبة بنفس الوقت."

في تلك الليلة، لم أكن متأكداً إذا كنت شجاعًا أم متهورًا. لكنني أعرف شيء واحد فقط:

السكوت لم يعد خياراً.

"شيء تغيّر في البيت"

لم أكن أفهم كل شيء وقتها... كنت طفلًا، بالكاد أستطيع قراءة الجريدة إذا تركها أبي على الطاولة، لكنني كنت ألاحظ. الأطفال يلاحظون أكثر مما نظن.

تلك الليلة، لم أستطع النوم. البرد كان قارسًا، والكهرباء مقطوعة كعادتها. كنت مستلقيًا تحت البطانية الثقيلة، أراقب ظلال الضوء الخافت المتسلل من الشارع عبر النافذة.

فجأة، سمعت صوت سامر. لم يكن مرتفعًا، لكنه مختلف. جاد، متوتر. ضحكته التي اعتدت سماعها لم تكن هناك.

تسللت من سريري، وفتحت باب غرفتي بصمت. سمعت همسات، أصوات خافتة قادمة من غرفة الجلوس.

اقتربت بحذر. كان الباب مواربًا، رأيت سامر جالسًا مع شابين آخرين – واحد منهم أذكره، اسمه عمار.

لم أسمع كل شيء، فقط كلمات متقطعة:

"ما لازم نضل ساكتين..."

"الحرية مو جريمة..."

"إذا ما حكينا، ما رح يتغيّر شي..."

لا أعرف لماذا، لكن قلبي خفق بقوة. لم يكن حديثًا عاديًا. كان يشبه تلك اللحظات التي يدخل فيها أبي إلى البيت عابسًا، ويطلب منا بصوت حاد أن نغلق التلفاز إذا جاء فيه اسم "بشار".

كنت أريد أن أفهم، أن أسأل، لكنني كنت أعرف – بطريقة غريبة – أن هذا الحديث ليس للأطفال. أنه شيء خطير.

عدت إلى سريري، لكن النوم لم يأتِ. بقيت أفكر، ليس في ما قاله سامر فقط... بل في كيف قاله.

في الأيام التي تلت، بدأ سامر يتغيّر. بات أكثر صمتًا، أكثر شرودًا. صار يخرج كثيرًا، ويتأخر في العودة. أمي كانت تسأله:

— "وين كنت؟"

وكان يرد دائمًا:

— "في الجامعة."

لكنها لم تكن تصدقه تمامًا. وأنا... لم أعد أصدق أن سامر هو نفس سامر الذي كنت أعرفه.

شيء ما كان يتغيّر... في البيت... وفي الشارع... وفي العالم.

"15 آذار: يوم كسر الصمت"

كان صباح الثلاثاء، 15 آذار.
السماء رمادية والبرد ما زال قاسيًا رغم اقتراب الربيع.
لكن يداي كانت تتعرقان من الداخل، وتفكيري مشوّش.

ارتديت كنزة بسيطة، خالية من أي رموز، وانتعلت حذاءً قديماً كي لا أبدو "مشبوهاً".
خرجت من السكن وكأنني في طريق عادي إلى المحاضرة.
لكن الحقيقة أنني كنت ذاهبًا لأول مظاهرة في حياتي.

عند باب الجامع الأموي، التقيت بعمار ونبيل.
كانت نظراتنا متوترة، مرتبكة، لكن العيون فيها لمعان غريب... شيء يشبه الأمل؟ لا...
بل شيء يشبه التحرر المنتظر.

دخلنا الجامع لأداء صلاة الظهر.
وأنا أصلي، شعرت أن جسدي كله يرتجف.
هل نحن مجانين؟ هل سنُعتقل؟
هل هذا يستحق؟

هل سأعود الليلة إلى السكن أم إلى فرع أمني؟

لكن رغم كل ذلك... في داخلي نار...

نار تقول: هذا وقتنا.

انتهت الصلاة. خرجنا مع الناس.

توقفنا عند الباحة، وتبادلنا إشارة سريعة.

ثم بدأ الصوت:

"الله، سوريا، حرية وبس!"

"الشعب السوري ما بينذل!"

كان الصوت خافتًا في البداية، كأننا نحفر الصمت بأظافرنا.

ثم ارتفع.

ثم انفجر.

كأن شيئًا في صدري انكسر.

شعرت لأول مرة أني أتنفّس بحرية.

لم أكن وحدي.

كنا أكثر من مئة شخص، ثم ازداد العدد.

صرنا نمشي في سوق الحميدية.

الناس تفتح محلاتها وتحدّق بنا، بعضهم رفع حاجبيه بدهشة، آخرون انسحبوا للخلف بخوف.

لكن هناك عيون لمعت. عيون قالت "أخيرًا"، وإن لم تنطق.

ثم، من حيث لا ندري، ظهروا.

رجال بلباس مدني.

وجوه خشنة، ملامح جامدة، نظرات تشبه السكاكين.

رأيت أحدهم يضع يده في جيبه... ويُخرج عصا كهربائية.

أحدهم صاح: "فرقوهم!"

ثم انقضّوا.

كل شيء بعدها صار مشوّشًا.

صوت صراخ.

ناس يركضون.

هراوة تُضرب على الأرض.

شخص يُسحب من ياقة قميصه.

أنا أركض. أركض ولا ألتفت.

قلبي يكاد ينفجر.

لم أعد أعرف أين عمار.

نبيل؟ لا أدري.

أقدامي تقودني بين الأزقة، وأنا أتصبب عرقًا، رغم البرد.

أدخل دكانًا صغيرًا، يرمقني صاحبه، يتردد... ثم يومئ برأسه.

أجلس هناك خلف كرتونة تمر.

أنفاسي متقطعة.

كل شيء في جسدي يرجف.

لكن فجأة، وسط هذا الخوف...

شعرت بنشوة.

نعم، كنت خائفًا، مذعورًا، لكني كنت حيًا بطريقة لم أعهدها.

لقد فعلناها.

صراعٌ على أعتاب العاصفة

لم يكن سامر يستطيع البقاء أكثر في السكن الجامعي.

القبضة الأمنية المشددة، الاعتقالات المفاجئة، والخوف الذي كان يكبر في داخله ككرة ثلج تتدحرج. بلا توقف، دفعه لاتخاذ قرارٍ مفاجئ.

ركب الحافلة في صباح بارد، ناظراً من النافذة إلى الطرقات التي تمر بها، كل شيء يبدو عاديًا لكنه لم يكن كذلك.

في رأسه دوامة أفكار: هل سأصل سالمًا؟ هل سيفهمني والدي؟ هل سيسامحني؟

وصل إلى مضايا، الهواء فيها ثقيل، متوتر،

خطواته على الأرضية المتعبة كانت تردد إيقاعًا متسارعًا في قلبه. كل شيء حوله يحمل ثقل اللحظة، ثقل صورة التحدي والخطر التي ترافقه.

كان الصمت ثقيلا، يُثقِلُ أنفاسَ الجميع في الغرفة. الأب، بوجهه المُحتقنِ بالغضبِ و الخوف، يمسكُ الهاتفَ بيدٍ مرتعشة، بينما سامر يقفُ أمامه، عيناه تشتعلان بتحدٍّ صامت.

الأب (بصوتٍ مكتوم، يحاول كبحَ انفعاله):

"سامر... شو هالجنون؟ شو هالصورة؟ شو هالحركات اللي بتسويها؟!"

سامر (يبتلعُ ريقه، ثم يُجيبُ بنبرةٍ هادئةٍ لكنها حادة):

"بابا، ما في حركات... هاد حقّي. حقّنا. الناس عم تموت من الجوع، من القهر، وإنتا قاعد عم تقلي 'اسكت'؟!"

الأب يضغطُ على الهاتف حتى كاد يُكسره، عروقُ رقبته تنتفخُ كالحبال:

"حقك؟! وين حقي أنا؟ وين حقّ العيلة؟ إذا اجوك المخابرات، مين رح يوقف معك؟ مين رح يدافع عنك؟ أنا؟!"

سامر يُحدّقُ في أبيه، وكأنه يراه للمرة الأولى. عيناه لا تريان إلا رجلا مرتعداً من ظله، مُقيّداً بسلاسل الخوف.

"بابا... انت خايف. بس خوفك ما رح يوقف القتل. انت ضابط، و انت بتعرف شقد الناس بتتعذب، بتختفي! بس انت ساكت، لأنك قاعد تشرب شايَك وتقول 'اللّٰه يستر'!"

كلماتُ سامر تسقطُ كالسكاكين. الأب يرتجفُ كشجرةٍ في عاصفة، ثم ينهضُ فجأةً، وجهه يشبهُ البركان قبل الانفجار.

الأب (يهزُّ كتفيه، كأنه يحاولُ إقناعَ نفسه قبل ابنه):

"إنتا مفكر حالك بطل؟ إنتا مفكر هالبلد بتتغير بكلمتين؟ هالنظام... هالنظام بياكل الحديد!

أنت مابتعرف شي ولا فهمان الموقف الي حطيت حالك وحطيتنا فيه "

سامر (يضحكُ ضحكةً مريرةً، مليئةً بالسخرية والألم):

"طبعاً بياكل الحديد... لأنه ما حدا جرب وقف قدامه! كلكن خايفين، كلكن بتبرروا القمع! انت مثلهم... ما بتفرقّ عنهم شي!"

في تلك اللحظة، كأن شيئاً انكسرَ في الأب. رفعَ يده بسرعة ، وصفعَ سامر بقوةٍ جعلت رأسه يدور. الصوتُ جافٌ وقاسٍ، كطلقةٍ في صمتِ الليل.

الدمُ ينسابُ من شفةِ سامر، لكن عينيه لا تزالان تشتعلان. الأم تُسرعُ إلى الغرفة، تضعُ نفسها بينهما، يداها ترتجفان.

الأم (بصوتٍ مكسور):

"خلص خلصنا ! سامر، روح عغرفتك... روحي!"

لكن سامر لا يتحرك. ينظُرُ إلى أبيه، وكأنه يُودّعُ صورةً قديمةً له.

سامر (يهمسُ والدمُ يُلوّثُ ذقنه):

"القمع هي اللغة الوحيدة اللي بتعرفوها... بس هالمرة، ما رح نسكت."

الأب يتراجعُ خطوةً إلى الوراء، كأن الصفعة أصابته هو أيضاً. يداه ترتعشان، وعيناه تفيضانُ بشيءٍ أشبهُ بالندم، لكنه لا يستطيعُ النطق.

سامر يُديرُ ظهره، يجر رجليه نحو الغرفة، بخطوات ثقيلةٌ الأم تلتفتُ إلى زوجها، عيناها تسألان: "إلى متى؟"، لكن السؤالَ يبقى معلقاً في الهواء.

في الغرفة، يُغلقُ سامر البابَ خلفه، ينزلقُ على الأرض، ظهره على الباب. يداه ترتجفان، لكن قلبه... قلبه أشبهُ بجمرةٍ لا تنطفئ.

فارس – مضايا، ربيع 2011

في ذلك اليوم، بدا كل شيء غريبًا منذ الصباح.

استيقظتُ على صوت أمي وهي تفتح الباب بسرعة، وصوت خطوات سامر في الممر. لم نكن نتوقّع عودته، فقد كان في السكن الجامعي بدمشق. ركضتُ نحوه، لكنّه لم يلتفت إليّ... نظر إلى الأرض ومشى نحو غرفة أبي.

جلستُ على السجادة في الزاوية، أقوم بكتابة واجباتي المدرسية . كنت أراقب باب غرفة أبي، المغلق. شيء ما لم يكن على ما يرام. الصمت كان ثقيلا ً، حتى أني شعرت بقلبي يدقّ ببطء غريب.

ثم بدأ الصوت بالارتفاع.

سمعت صوت أبي، غاضبًا، يصرخ:

"سامر... شو هالجنون؟ شو هالصورة؟ شو هالحركات اللي بتسويها؟!"

وسامر رد عليه، صوته لم يكن عالياً، لكن فيه نبرة لم أسمعها منه قبل:

"لك بابا، هاد أقل شي فينا نعمله... الناس عم تنذل، عم تنهان، وانتو ساكتين!"

انحبس نفسي. بقيتُ أنظر إلى الباب، وأصواتهما تتصاعد.

أبي انفجر:

"بتعرف شو يعني أمن دولة؟ بتعرف شو ممكن يصير إذا شافوك؟ بدّك تدمّر بيتنا؟!"

وسامر قال جملة لازلت أذكرها، حتى وأنا صغير شعرتُ إنها ثقيلة:

"إنتو متلكون متل النظام! نفس اللغة، نفس التفكير!"

ثم جاء الصمت... وبعده صوت قوي، صفعة مثل الرعد. قلبي وقع.

ركضت أمي من المطبخ، فتحت الباب بسرعة، صرخت:

"وقفوا! شبكن انتو؟ سامر فوت لجُوّا!"

خرجت من مكاني، لكن لم ينتبه أحدا لي بعد . سامر واقف، وجهه محمّر، ودم على شفته.

وأبي واقف متجمّد، كأنّه لم يستوعب ما حدث بعد.

سامر بصوت مكسور قال:

"ما عاد في فرق... كلكن بتضربوا لتسكتونا..."

ثم دخل غرفته وأغلق الباب.

أمي ظلت واقفة أمام الباب، وعيونها ممتلئة بالدموع. أبي لم يقل شيئاً، لكن يظهر عليه الندم، أو ربما الخوف... لا أعلم.

أما أنا، فبقيت في مكاني، ، لم أكن قادراً على فهم كل شيئ، لكن شعرت أن هنالك شيئا انكسر في البيت. شيئ كبير.

جلس الأب على حافة الكنبة، يديه متشابكتان أمامه، ظهره محني كمن يحمل على كتفيه جبلا ً. كان ينظر إلى الأرض بصمت، وصوت الصفعة ما زال يرنّ في أذنه كأنها لم تحدث قبل لحظات، بل تتكرر كل ثانية.

لم يكن يقصد أن يضربه... لكنه لم يعرف كيف يوقفه.

"أنا شو عملت؟ شو كنت عبفكر؟"

أدار نظره نحو الباب المغلق، وكأن كل المسافة بينه وبين ابنه أصبحت جداراً لا يمكن عبوره.

"أنا بدي احميك يا سامر... والله بدي احميك. بس كيف؟ كيف بدي احميك من نظام إذا رفعت عيونك فيه، بيكسرلك ضهرك؟"

هو يعرف جيدًا من هو هذا النظام. لم يسمع عنه فقط. عاشه، وتعامل معه.

رأى الشباب كيف يتم سحبهم من فراشهم في الليل، ولا يعودون أبدا.

رأى أهلهم كيف يتوسلون على أبواب الأفرع ، ينتظرون خبر، صوت، ريحة.

تنفّس بصعوبة، وكأن الهواء ثقيل في صدره.

"أنا خايف عليك يا ابني... مو لأنك غلطت، بس لأنك قلت الحقيقة بمكان ما بيقبل الحقيقة. مشكلتنا مو إنو ما منعرف، مشكلتنا إنو إذا حكينا، منناس."

رفع رأسه للحظة، يفكر في الذهاب لغرفة سامر، ليتكلم معه، يشرح له.

لكنه أدرك أنه لم يعد هنالك مجال.

"إذا سامر طلع بالفيديو... إذا حدا شافه... إذا حدا بلّغ... شو رح يصير؟ شو رح يعملوا فينا؟ في فارس؟ في أم سامر؟"

"كل شيء من حوله بات ضبابيًا. لا يدري ما الخطوة التالية، ولا كيف يمكنه محو الصورة من الإنترنت، ولا إن كان هناك شيء يُمحى حقًا في هذا البلد.".

"أنا بدي إبني يضل عايش... مو مهم يكون بطل."

"لكن سامر، من الواضح أنه لم يعد يرغب في أن يعيش كما يعيش الجميع. لم يعد طفلًا ، لكنه لا يدرك بعدُ كم أن الأرض التي يقف عليها مزروعة بالألغام.

ضمّ يديه ببعضهما، كأنه يحاول أن يُمسك قلبه كي لا ينفجر."

"الله يسترنا... الله يسترنا من الجاي."

17 آذار 2011 - اليوم التالي

استيقظت على صوت همسات. أمي وأبي يتكلمان في المطبخ بصوت منخفض. حاولت أن أفهم ما يقولان، لكنني لم أسمع إلا كلمات متقطعة: "سامر"، "الجامعة"، "خطر".

سامر لم يخرج من غرفته حتى الآن. عادةً يكون أول من يستيقظ. نظرت إلى باب غرفته المغلق، ثم إلى أمي. كانت عيناها حمراوتان، كأنها لم تنم.

عندما جلست لتناول الفطور، لاحظت أن أبي يرتدي بزته العسكرية كالعادة، لكنه لم يأكل. كان يشرب القهوة بسرعة وينظر إلى ساعته بين الحين والآخر.

سألته: "بابا، رح توصلنا على المدرسة اليوم؟"

نظر إليّ للحظة، ثم قال: "لا، فارس. انت رح تروح مع أمك."

في الطريق إلى المدرسة، كانت الشوارع هادئة أكثر من المعتاد. رأيت رجالًا بلباس مدني يقفون عند زاوية الحارة، يدخنون ويراقبون المارة. أمي أمسكت بيدي بقوة وسرعت خطواتها.

في المدرسة، لاحظت أن عدد الطلاب أقل من المعتاد. المعلم محمود كان جاداً أكثر من كل الأيام. أمرنا أن نفتح كتبنا دون أن يبتسم كعادته.

أثناء الفسحة، سمعت بعض الأولاد يتحدثون عن "مظاهرة" في دمشق. قال أحدهم: "أخوي قال أنو في ناس انحبسوا أمس". نظر المدرس إليهم فسكتوا فوراً.

في المساء، جاء أبو نزيه يطرق الباب. همس لأبي بكلام لم أسمعه. أبي أخذ معطفه وخرج مسرعاً دون أن يقول لي شيئاً.

أمي جلست أمام التلفاز، لكنها لم تشغّله. كانت تنظر إلى الشاشة السوداء وكأنها تنتظر شيئاً.

ذهبت إلى غرفتي وحاولت أن أقرأ، لكنني لم أستطع. كل ما استطعت فعله هو الا ستماع إلى صوت دقات الساعة على الحائط.

"الشرارة الأولى 18 آذار 2011"

استيقظتُ على أصوات غريبة في الخارج. سيارات كثيرة تمر مسرعة في الشارع، وصوتها يملأ الحارة كأن شيئًا ما حدث. فتحت نافذتي الصغيرة ونظرت إلى الخارج، فرأيت عدداً من الجيران مجتمعين أمام منزل أبو نزيه، يتحدثون بهمس وملامحهم مشدودة، كأنهم لا يريدون لأحد أن يسمعهم.

في الصالة، كان سامر يجلس وحده، ممسكًا بهاتفه، وعيناه متورمتان من السهر. ما إن رآني حتى أخفى الهاتف بسرعة. لم يقل شيئًا، وأنا لم أسأله.

في المطبخ، كانت أمي تحاول تشغيل الراديو. قلبت بين الترددات، ثم تنهدت وقالت بصوت فيه شيء من الارتباك:

"انقطع البث... متل مبارح."

في طريقنا إلى المدرسة، بدت الحارة مختلفة. بعض المحال مغلقة، والناس يمشون بسرعة، وكأنهم لا يريدون التوقف. رأيت رجالًا غرباء لا أعرفهم، يقفون عند الزوايا، يراقبون المارة بصمت. بجانبي، كانت أمي تمسك بيدي بقوة أكبر من المعتاد.

مررنا بجارتنا أم نزار، التي كانت تهمس لصديقتها عند باب أحد البيوت:

"في درعا... الجيش..."

لكن الأخرى أمسكت بها وسحبتها إلى الداخل قبل أن تتابع كلامها.

في المدرسة، كان عدد الطلاب أقل . دخل المعلم محمود الصف دون أن يسلّم، وقال وهو يفتح دفتر الحضور:

"اليوم ما في حصة أخيرة، كل واحد يروح عبيته فورًا."

كان صوته خافتًا، وجهه شاحب، ولم ينظر إلينا كثيرًا.

عندما عدت إلى المنزل، سمعت صوت نقاش من الغرفة. اقتربت، وسمعت صوت والدي غاضبًا:

"ما بدي تطلع من البيت هالأيام! سامر، عم تفهم؟"

رد سامر بنبرة هادئة، لكنها لم تكن خالية من التحدي:

"بابا، الناس عم تموت، ونحن قاعدين؟"

فجأة، التفت كلاهما نحوي وسكتا. لم أكن أقصد التلصص، لكن قلبي كان يدقّ بسرعة.

في المساء، جاء عمّي خالد يطرق الباب بعجلة. فتح له أبي، فاندفع يقول وهو يلهث:

"درعا... سمعت إنو الجيش بلّش يطلق نار عالناس!"

أشار أبي نحوي، فتوقف عمي فورًا، واقترب منه وهمس بشيء لم أسمعه. لاحظت وجه أبي يتحوّل، كأنه خسر لونه في لحظة.

جلست أمي بجانبي في غرفة النوم، تحمل كتابًا لكنها لم تقرأ. عيناها كانتا معلقتين بـ الباب، كأنها تنتظر شيئًا سيئًا.

دخل سامر فجأة، . ابتسم لي، وربّت على رأسي وقال:

"نام يا فارس... كل شي رح يكون تمام."

"سامر... فيك توصلني بكرا؟"

-إن شاء الله

لكنني رأيت يده ترتجف حين أطفأ الضوء.

في العتمة، سمعت أبوابًا تفتح وتُغلق، وخطوات سريعة تمرّ في الممر. لم أعد واثقًا إن كان سامر سيبقى الليلة.

من بعيد، كانت صفارات تُسمع في الشارع، ورائحة غريبة في الهواء... كأنها رائحة دخان.

شعرت أن شيئًا كبيرًا تغيّر، لكن لا أحد أراد أن يخبرني ما هو.

الإعتقال

كانت الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل.

البيت غارق في صمت ثقيل، لا يقطعه سوى صوت عقارب الساعة على الحائط، ورجفة خفيفة في زجاج النوافذ كلما مرت نسمة هواء.

فارس كان نائمًا، متكورًا على نفسه في سريره، ووالدته نصف نائمة على الكنبة. سامر ما زال مستيقظًا في غرفته، يتصفح هاتفه بسرعة وخوف، يتنقل بين صور وتسجيلات تُنشر من درعا.

وفجأة...

دقّ الباب بعنف.

دقّ... دقّ... دقّ

أصواتٌ غليظة، صارمة، تصرخ من الخارج:

"أبو سامر! افتاح بسرعة أمن دولة !"

ركض الأب نحو الباب، قلبه يكاد يخرج من صدره. نظر إلى زوجته، فوجد وجهها قد شحب تمامًا. سامر خرج من غرفته، وقف خلف والده، فهم كل شيء في لحظة.

الأب (بصوت مضطرب):

"خير؟ شو في؟"

من خلف الباب، جاء الصوت أقسى:

"فتاح بلا ما نكسر الباب ع السريع!"

فتح الأب الباب بيدين مرتجفتين.

دخل ستة رجال عمالقة بلباس مدني، يضعون مسدساتهم على خواصرهم، لا يحملون أي أوراق، ولا يظهرون أي إحترام فقط الكثير من الصراخ والشتائم ...

تقدم أحدهم، نظر إلى سامر مباشرة:

"إنت سامر ابن ****؟"

سامر حاول أن يتمالك نفسه، قال بصوت خافت:

"إي... شو القصة؟"

ردّ الآخر بسرعة ودون تفسيرات:

"شحطوه"

الأب رفع صوته:

"ابني ما عمل شي، شو التهمة؟! وين الورقة؟"

الرجل التفت إليه، بنظرة حادة باردة، وقال بصوت منخفض ومهدد:

"تهمة؟ وورقة كمان ؟ تهمة إنك مربي بالبيت واحد عم ***! ولك لا تخليني *** هون قدام عيلتك!"

أم سامر وقفت قرب ابنها، وضعت يدها على صدره:

"لك وين رايحين فيه؟ ابني طالب جامعة! مو عامل شي"

أحد العناصر اقترب منها وقال بنبرة استخفاف:

"بدنا نحكي شوي... وإذا كان نظيف، بيرجع. وإذا لا، منحاول نرجع بس تيابو بس مابوعدك!"

أخذوه دون أن يتركوا فرصة لأحد لوداعه. مشى سامر بصمت، محاطًا بهم، كأنهم يسوقونه إلى الموت.

أغلقوا الباب بعنف خلفهم.

الأب بقي واقفًا في مكانه، يحدّق في الأرض.

الأم انهارت على الأرض تبكي.

وفارس، من خلف باب غرفته، سمع كل شيء.

كان يعرف أن شيئًا كبيرًا قد حدث... شيء لن يعود بعده شيء كما كان.

شهادة سامر – فرع فلسطين

لم أعرف إلى أين يأخذونني، لكن كل شيء بدا واضحًا من أول لحظة...

البلد لم تتغيّر أبدا ، لكن بدأت تظهر ملامح الوجه الحقيقي ، ما كنا نعتبره دولة وحكومة نطالب

بإصلاحها ظهرت ككيان جبان مهزوز يخاف من الكلمة من الصوت من الشعب ....

مساء 18 آذار ، سحبوني من بين أهلي كأني مجرم، مو كأني طالب جامعة.

ما عطوني فرصة حتى ألبس، بس قال واحد منهم وهو بيدفشني عالسيارة:

"تعا يا بطل... تعا خلينا نعلمك معنى الحرية!"

السيارة كانت باص صغير، مافيه لا شباك ولا نور، ريحة عفن وعرق، وكان في غيري،

شباب مرميين على الأرض، مكبّلين، والدم منشف على وجوهم. واحد عم يتنفس بصعوبة، والتاني ما عاد يتحرك. حاولت أفتح تمّي، سألتهم: "وين رايحين فينا؟"

واحد من العناصر ردّ علي ببوكس على وجهي:

"سَكر تمك يا ****، وقول يا رب نوصل عالفرع!"

وصلنا على ما فهمت لاحقًا إنه فرع فلسطين.

لم أكن أعرف شي عن هذا المكان سوى الإشاعات، لكن الحقيقة كانت أفظع من كل شيئ سمعته.

أنزلونا بسرعة، كلنا برؤوس منحنية، وعيوننا معصوبة، وأيدينا مربوطة خلف ظهرنا بشيء بلاستيكي يقطع اللحم. سمعنا صوت الباب الحديدي يفتح، وبعدين صوت الكرباج يضرب بلا رحمة.

"انزل يا ***، تحب الحريّة؟ هي الحرية يا ابن***"!"

ضربوني أول ما فتت، أول ما داست أجري عالأرض تبع الفرع.

واحد كان ماسك كبل كهربا، وواحد تاني ماسك عصاية، والتالت واقف يضحك.

ما كان في استجواب... ما حدا سألني شي.

كان في عويل، ضرب، مسبات، بهادل، وكأنهم بس بدهم يشوفوا شقد فيهن يكسروا البني آدم.

اقتادوني بعدها لغرفة صغيرة... سمّوها "المنفسة".

ما فيها ضو، الحيطان باردة ورطبة، وأنا متكور، ضهري لاصق بالحيط، عم حاول أفهم: ليش أنا هون؟ شو عملت؟

بس ما كان في أجوبة.

في صوت بساطيرهم هو الجواب.

في الشتائم يلي كنت أسمعها كل ما يفتح الباب:

"يا خونة، يا عملاء، يا أولاد ****، رح تخلو البلد تصير عراق تانية؟"

كانت أجسادنا تتوجع، بس الكرامة هي يلي كانت تتُداس أكتر.
ما قدرت نام، كل صوت خطوات كان يخوفني، كل باب ينفتح كنت قول: "هالمرة إلي."
ولما إجا دوري، لقّوني بعصبة جديدة، وسحبوني من رجلي متل كيس.

المحقق ما كان بيسأل ليعرف، كان بس عم يدور على سبب ليذلك.
سألني: "شو كتبت عالفيسبوك؟ مع مين تواصلت؟ مين بيحرّضك؟"
قلتله: "أنا طالب... طالب بس."
فجّر ضحكة مليانة سخرية وقال:
"طالب؟ هههه، إنت **** !"
"لخليك تلعن اليوم الي ولدت فيه... تطلب الموت وماتلاقي "
وبدأ العذاب...
الكرسي الألماني، الكبل، الدولاب، الكهرباء، الركل، الإهانة...
وفي كل مرة كنت حاول أصرخ، كانوا يفرحوا أكتر.
أحدهم قال:
"عجبتني صرختك... عيدها!"

كل شيئ بدأ يتفتت داخلي...
الخوف، الكرامة، الثقة بالبشر...
لكن الشيئ الوحيد الذي بقي في داخلي، مثل جمرة، هو القناعة: نحن نواجه وحشاً، وليس نظام دولة .

في الفرع، الناس ما اسمهم بشر، إلهم أرقام.

كنت رقم 72...

ما كان حدا يناديني باسمي، ما حدا سألني مين أهلي، أو وين ساكن...

أكتر سؤال كان ينسأل

"مين ربك ولاك؟"

وإذا ما جاوبت بسرعة، الضرب كان هو الجواب.

كل شي فيّ كان عم ينكسر...

بس جوّا، رغم الوجع، كنت عم أقول: "ما رح أخليهم يمحوني. ما رح يصير اسمي رقم."

الشبح...

ما كنت أعرف شو يعني هالكلمة.

كنت مفكرها اسم رمزي. اسم رمزي للخوف، للرهبة، لليالي الباردة.

بس لا...

الشبح كان فعلًا: الموت واقف عإجريك، وجسدك هو حبل المشنقة.

ربطوا إيدي من ورا، سحبوني لفوق، وما كنت بعرف شو عم يعملوا بالضبط، لحتى حسّيت أن مفاصلي عم تتفكك وحدة وحدة.

وزني... جسمي... كلي صار يتدلّى من رسغيني.

كأنك معلّق من عروقك، من نخاعك، من أنفاسك.

ما في صوت.

بس في صدى داخلي عم يصرخ جوّاتك:

"نزّلوني... نزّلوني قبل ما أنفجر!"

بس هني بيضحكوا.

بيمرّوا من قدامك، بيطلّوا على وجهك المتورم، وبيقولوا:

"هي الحرية الي بدكن ياه .. لسه ماشفتوا شي"

تتغيّر علاقتك بجسدك.

بطل ملكك.

إجرك ما عم ترد عليك، إيدك عم تنمل، ريقك نشف، عينك ما بقا تدمع.

حتى دموعك خاينة... حتى هي تركتك.

بتحاول تشرد بفكرك، تروح لأي مكان... بس ما فيك.

أنا... سامر...

نسيت وجهي، نسيت إسمي، نسيت بيتنا.

بس ما نسيت آخر شي قاله أخي فارس قبل ما ياخدوني:

"سامر... فيك توصلني بكرا؟"

يمكن لو عرف، ما كان سألني.

كان حضني...

يمكن كان آخر حضن.

في لحظة الشبح...

كنت أدوّر على أي ذكرى تطعمني قوة.

بس الصور كانت تتساقط من راسي، متل أوراق محروقة.

صوت أبي، لمسة أمي، ضحكة فارس وليلى...

كلها تنطفئ وحدة وحدة، وبتبقى لوحدك، بصمت يشبه القبر، بس فيه وجع أكثر.

بيمرّوا لعندي واحد ورا التاني.

واحد شلّحني فردة جزمة، وبدا يضربني فيها على وشي.

"جاوب، يا ****! مين حرّضك؟!

بدي ألعن****"

أنا ساكت. مو لأنه بطل... لا.

بس لأن الصوت ما بقا يطلع.

الشبح ما بيموتك...

بيخليك تتمنى تموت.

مرّت ساعات... أو يمكن أيام؟

الضوء ما بيفرق بين نهار وليلة.

بس ساعة الألم، هي نفسها دائماً.

ولما نزلوني...

وقع جسمي متل كيس البطاطا.

وما قدرت حتى ألمس الأرض.

أجري ما عادوا يشيلوني.

زحفوني للزنزانة، كبّوني متل الكلب، وسكّروا الباب.

كنت بدي صرخ.

بس حتى صوتي كان مكسور.

وقت الشبح، بتكتشف حقيقة بشعة:

إنو الجسد مو رفيقك... الجسد هو اللي بيخونك أول شي.

"بعد أن أغلق الباب"

منذ تلك الليلة، حين خرج سامر ولم يعد، تغيّر كل شيء.

لم نسمع شيئًا عنه، ولا عن مكانه، ولا عن حاله. الباب الذي أغلقته عناصر الأمن خلفه... أغلق معنا بيتنا، وكسرنا من الداخل.

أمي، منذ اليوم الأول، لم تدخل غرفته. كانت تمر قرب الباب، تضع يدها على المقبض... ثم تبتعد.

صارت تجلس على الأرض قرب الفرن، تحتضن منديلًا مبللًا بدموعها، وتهمس لنفسها:

"أخدوه متل الحرامية... ما عطوني فرصة أبوسه... قالوا بيرجع بعد شوي، ولهلأ ما رجع..."

كانت تحاول أن تطبخ، لكنها تنسى النار مشتعلة. تنسى الملح، تنسى حتى الأكل.

وفي المساء، كانت تجلس قرب النافذة، تنتظر أحدًا لا تعرفه، وتنظر في العتمة كأنها تنتظر وجهه أن يخرج من بين الظلال.

ليلى تسأل كل يوم:

"ماما، سامر بعده زعلان؟ ليش ما عم يرد علينا؟"

وكل مرة، أمي تبتسم لها ابتسامة مكسورة، وتقول:

"سامر بالشغل يا عمري... بس بيرجع، والله بيرجع."

لكن بعد أن تخرج من الغرفة، كنت أسمعها تبكي بصوت خافت، تخنقه بكم قميصها.

أبي... أبي كان هو الصمت نفسه.

يجلس ساعات على الكرسي في المطبخ، لا يتكلم، لا يأكل، لا ينظر حتى.

رأيته مرة عند الفجر، يخرج من البيت وحده، ويمشي باتجاه الطريق العام. عاد بعد ساعة، وعيناه كانتا حمرواين.

في الليل، كان أحيانًا يضع يده على خزانة سامر، يفتحها قليلًا، يلمس دفترًا قديمًا أو قميصًا، ثم يغلقها بسرعة كأنه خائف من رائحة الذكرى.

أما أنا...

فكل شيء صار ناقصًا.

كرسي سامر على المائدة فارغ، صحنه لم يعد أحد يلمسه، الكوب الذي كان يشرب فيه الشاي لا يزال واقف على رف المطبخ.

حتى صوته، كنت أفتّش عنه في بالليل. كنت أقول لنفسي: "يمكن هلأ يدخل... يمكن بس كانت غلطة..."

ما حدا دخل.

ولا حتى خبر.

أحاول أن أقرأ... لا أستطيع.

أحاول أن انام... أحلم فيه يصرخ.

أمد يدي في الليل وأتخيل إنه بجانبي... ولا أجد سوى الفراغ.

مرّت الأيام، ولا أحد دق الباب... ولا أحد سأل عنّا.

وكأن سامر اختفى، واختفت معه الشمس.

"ضابط؟ بس مين قال إنو ضابط بيحكي مع فرع؟"

خرجوا من بيتي، ومعهم سامر... وأنا واقف كشجرة جافة، لا حياة فيها ولا ظل.

أنا، ضابط في الجيش، كنت أظن أن اسمي يكفيني لدخول أي باب، لم أستطع أن أفتح فمي عندما أخذوا ابني من أمامي، كأنه لص.

منذ تلك الليلة، لم أعد أنام كما ينام الناس.

كل صباح، ألبس بزتي العسكرية، أحاول أن أبرز ظهري أمام المرآة، لكن ظهري ظل منحنياً... ليس من التعب، بل من العجز.

عجز أمام آلة لا ترى فيك رفيق سلاح، بل كأنك من القطيع... إذا خرج ابنك، فكأنك خرجت معه.

بدأتُ بما ظننته "الطريق الأسهل" — المعارف.

زميلي القديم، العقيد جهاد، خدمنا معًا أكثر من عشر سنوات. يعرف ابني بالاسم.

دخلت عليه في مكتبه بمبنى قيادة الشرطة العسكرية، وجلست أمامه وقلت:

"ابني يا جهاد... أخدوه، ولسّا ما في خبر رسمي. في حكي إنه ثقل عفرع فلسطين، بس ما في شي أكيد. إذا بتقدر تساعدني... بس طمّنّي عليه، ما بنسالك هالخدمة ."

رفع نظره إليّ ببطء، ونبرة صوته كانت باردة:

"فلسطين؟ إذا فعلا ً راح لهنيك... صعب، كتير صعب. هداك الفرع ما بيطلع منه خبر، ولا صوت."

قلت له، وصوتي يحاول أن يبدو واثقًا:

"إي بس أنا نقيب... مو واحد غريب. بحكي مع حدا، بقدّروا وضعي."

ضحك، ضحكة قصيرة مالحة، وقال:

"أبو سامر... ضابط؟ مين قال إنو ضابط بيحكي مع فرع؟ الفروع مو دولة... هني فوق الدولة."

سكتُ. أردت أن أكذّبه، أن أقول له إننا نحمل نفس الشعار، نفس البزة. لكن الحقيقة كانت تلسعني.

قال:

"إذا بدك جواب، لازم تدخل من تحت، مو من فوق. بتحكي مع وسيط، بتوصل لعسكري صغير، بيمرّر اسم، بيعطيك كلمة. بس بتدفع. الكل عم يدفع."

غادرت دون كلام.

في اليوم التالي، دخلت مقرًا صغيرًا للأمن العسكري في الريف. مكتب مألوف، فيه ضابط لكنته ساحلية.

سلّمت عليه رسميًا، وشرحت له القصة.

قال لي وهو يقلب أوراق لا تخصّني:

"اسمك؟"

"نقيب... فلان."

"ابنك شو عامل؟"

"طالب... بس شارك بمظاهرة، يمكن كتب شي..."

" نقيب... والله نورتنا!

بس احزر شو؟

هون، ما بتمشي لا رتبة ولا بدلة ولا سلاح.

هون بس الولاء... وانت شايف وضعك ما بيسمحلك تجيب سيرة الولاء علسانك."

سكت لحظة، مدّ يده على فنجان القهوة، شرب رشفة، وعاد يكمل وكأنه يعطي درسًا:

فيسبوك و منشورات ...

"ما ابنك بدو يشارك بالمظاهرة؟ ما بدو حرية للمعتقلين ؟ ...

الي بدو يسب ويتظاهر ضد البلد الي علمتو وكبرتو ومفضلة عليه وع أهلو

لازم يتخوزق ليصير عبرة لأي حدا بفكر بس يرفع صوتو

وإنت، إذا مفكر حالك بتمرّقها عالسكت لأنك ضابط... أنا مستغرب ليش ما شحطوك معو اصلا ."

نظرتُ إليه بصمت.

لكنه لم يكتفِ، اقترب قليلًا، وبصوت واطٍ خبيث قال:

"قلك شغلة؟

إذا ابنك صار ب- فرع فلسطين...

ادعيله، مو مشان يطلع،

ادعيله يضل قطعة وحدة..."

في الطريق، فكرت أن ألجأ لصديق يعمل كوسيط. رجل يعرف "ناس من جوّا". التقيت به في قهوة مهجورة، أخبرني أن هناك طريقًا غير مباشر:

"بتدفع... مو رشوة. بس كـ(خدمة)... بيعطوك رقم، بتمرره لمحقق، وبيسجّلو عندهم إنو في حدا عم يسأل عنو."

سألته:

"وهل ممكن أسمع صوتو؟ بس صوتو؟"

قال:

"لا ترفع السقف... نحنا بس بنحاول ما نخلي اسمو و أسمك يتحوّل لملف."

في آخر اليوم، عدت للبيت، وجهي لا يحمل بشرًا.

زوجتي سألتني:

"لقيت شي؟ عرفت إذا سامر بخير؟"

نظرت في عينيها، ولم أستطع الكذب.

لكنني لم أقل الحقيقة أيضًا.

قلت:

"في ناس عم تشتغل، وإن شاء الله بنسمع خبر."

ثم دخلت غرفتي، خلعت بزتي العسكرية، وعلقتها كما كنت أعلقها في كل يوم خدمة...

لكنني عرفت أنني، بعد اليوم،

لن أراها كما كنت أراها.

أيام في قعر الجحيم

لم أعد أدري كم مرّ من الوقت منذ دخولي، لكن عندما دخلت إلى فرع فلسطين، شعرت كأنني نزلت إلى أعماق الأرض، حرفيًا. كان هنالك باب حديدي كبير، درج طويل، ورائحة عفونة ودم وبول تملأ المكان وتخنق الأنفاس. الهواء هنا ليس هواءً عاديًا؛ إنه هواء ميت متعفّن، ثقيل، وكل نفس يختنق داخلك.

قادوني إلى زنزانة جماعية صغيرة، المساحة لا تتعدى مترين في أربعة، ولكنها كانت مليئة بأكثر من ثلاثين معتقلًا. تخيل أن يكون هناك ثلاثين نفسًا يحاولون التنفس من خلال فجوات صغيرة في الباب، وكأن الهواء قد نفد منهم جميعًا. الجدران داكنة من الرطوبة، والأرضية لزجة بشكل يجعل المشي عليها صعبًا، وفي زاوية من الزنزانة، كانت هناك كيس بلاستيك معلق بطريقة غريبة، وهو يستخدم كمكان للحمام — إلا أن أحدًا لا يستخدمه إلا للضرورة القصوى، بعد أن استُباحت كل معاني الإنسانية في هذا المكان.

لا يمكن وصف الرائحة التي تتغلغل هنا... إنه طيف الموت، رائحة كالذي يفوح من جثة لم تتحلل بعد، رائحة لا تُحتمل. عندما دخلت، لم يتحدث أحد، لكن الجميع كان يترقبني بنظرات مليئة بالرهبة واليأس. عيونهم كانت كأنها شاهدت ألف طريقة للموت، ولا تزال تنتظر أسوأها.

جلست بجانب شاب وجهه منتفخ، وعينه مغمضة، وشفتيه مشققتان. قال بصوت خافت: "قوّ حالك... هون ما بيرحموا حدا." منذ الليلة الأولى، بدأت أسمع أصواتًا غريبة ، ليست أصوات حديث أو ضحك، بل أصوات بشر يتغيرون، يتحولون إلى أشياء أخرى. كل ساعة، يخرج واحد من الزنزانة، ومعه يذهب صوته، يختفي، ثم يعود يصدر صرخات من بعيد، مخيفة، غير مألوفة. أحدهم ينادى بأسماء أولاده، آخر يصرخ وهو يبكي، وآخر يطلب الماء.

أما المحققون، فهم أبعد ما يكونون عن وصف البشر لا يتحدثون بوضوح ، أصواتهم المريعة: "جيب الكبل!"، "علقه ع الدولاب!"، "شغل الكهرباء وخلي لسانه يحترق!" وكل ما يحدث خلف الباب، وأنت جالس هناك، تحاول أن تقتنع بأنه ليس أنت القادم، وأن مصيرك لن يكون مثلهم. ولكن الأدوار تتبدل، والموت هنا له وجوهٌ عدة.

كان هناك شيخ كبير، مضى على وجوده هنا أكثر من شهر ، وقال لي: "أكثر شي مؤلم

مو التعذيب... لأ

الإنتظار .. انتظار الموت كل يوم وكل ساعة .. يوم عن يوم بيختفي مفهوم الإنسانية ببالك وبتصير تسألك حالك معقول يكونوا بشر متلنا ! ... شو هي التهمة شو هو الذنب ليش هيك عبصير ..

بس في الله.

كل يوم يمر، كأنه سنة كاملة، والأصوات لا تتوقف. لم أعد أميز الليل من النهار، ولا أعرف متى تشرق الشمس حقًا. لكن ما أعلمه، هو أنني أسمع صوت أخي فارس كل يوم ، داخليًا، وهو ويهمس:

"سامر... فيك توصلني بكرا؟..."

لا أعرف كم يومًا مرّ.

في فرع فلسطين، لا يوجد وقت.

لا نوافذ. لا شمس. لا هواء.

النهار والليل شيء واحد... اسمُه الانتظار.

زنزانة مترين في أربعة. فيها أكثر من ثلاثين جسدًا بشريًا.

لا مكان للجلوس. من يأتي متأخرًا يقف فوق الأرجل.

أنفاسنا متلاصقة، روائح العفن والدم والبول تملأ المكان.

الرطوبة تسيل من الجدران.

والهواء ثقيل.

كل شيء ثقيل.

كنت أصغرهم.

وكنت الأضعف.

جسدي لم يتعود بعد على هذه الرطوبة. مفاصلي متيبّسة.

بطني خاوية.

رجلاي لا تتوقفان عن الارتجاف.

في الليل، لا أحد ينام.

لأن خلف الباب الحديدي، تبدأ الحفلات.

حفلات الجلد.

حفلات الكهرباء.

حفلات الموت.

نسمعها بوضوح.

صوت السوط على اللحم.

صوت العظم وهو يُكسر.

صوت شاب يصرخ:

"مشان الله ... والله انا مالي علاقة .. يا الله!"

ثم صراخه يتحوّل إلى عويل.

ثم لا يعود هناك صوت.

في زاوية الزنزانة، كان يجلس رجل في أواخر الثلاثينات. رأسه محلوق، ووجهه مليء بالكدمات الزرقاء. لم يكن يتحدث كثيرًا.

لكنه في إحدى الليالي، بعد أن سُحب شابٌ صغير أمام أعيننا، قال فجأة:

-"أنا خالد... كنت أشتغل موظف بلدية. اعتقلوني لأنو جاري كتب تقرير إني حاكي شي عالأسد وأنا سكران."

نظر إليّ مباشرة، لأول مرة، وقال:

"أنا ما كنت سكران... بس كنت عم قول: الناس جوعانة."

سكت لحظة، ثم قال:

"من وقتها، وأنا هون... شهرين. بدون محكمة. بدون تهمة. حتى المحقق قلي: 'ما عندك شي، بس لازم تتربّى'."

قلت له:

"شو عملوا فيك؟"

رفع كمّه.

كان جلده محروقًا بالكهرباء.

قال:

"الشبح ما عاد يوجعني... بس لما بعلقوني عالدولاب ويفتحوا المي الباردة على جروحي... بحس روحي عم تطلع وتدخل."

ثم تمتم وكأنه يكلم نفسه:

الإنتصار الوحيد الي بتحس فيه هون هو إنك تضل عايش في وقت بتتلاشى فيه كل معاني

الإنسانية والكرامة .

-رجل نحيف جدًا، لحيته طويلة، اسمه عبد الستار، من حلب.

قال يومًا وهو يحرك مسبحة خشبية صنعها من نوى التمر:

"كنا ستة بالمنفردة ، واحد اسمه إياد، من درعا. شب أكابر، حباب، ما شفت منه إلا الخير."

"كان يحاول يخفف عنّا، يقول نكت... يقرأ قرآن... يساعد الكبار ."

تنهد، وتابع:

"يوم أخدوه على التحقيق، قال: 'بدّي أرجع بسرعة، حجزولي محلي وهو عبيضحك'.

رجع بعد ساعتين محمول.

ضل عبيضحك... بوجه مدمّى."

"ماحدا عرف إن كان ضحك إنتصار ولا هزيمة ، بس عيونه تسكّرت للأبد."

-أحد المعتقلين اسمه فراس.

شاب من حمص، صوته ناعم، جسمه ضعيف، واضح إنه ما انضرب قبل.

حكالي يوم:

"أول مرة أخدوني على التحقيق، قالولي: اليوم دورك على الحمّام."

فرحت... فكرت فعلا ً حمّام."

بس الحمّام... كان غرفة مغلقة، وفيها سطل مي، وكبل كهربا، وعصا بلاستيك سميكة.

قال:

"نزعوا ثيابي قدامهم، وبدوا يضربوا...

بس أكتر شي وجّعني، مو الضرب...

انو هن كانوا عبيحاولوا يكسروني من جوا كان عبزرعوا احساس الخوف العجز

الضرب كان كراهية أو إنتقام على شي والله مالي ذنب فيه ."

وإستمر بالبكاء ....

-في الزاوية المعتمة من الزنزانة، كان يجلس رجل في الأربعينات، هادئ، لا يأكل كثيرًا، لا ينام كثيرًا.

اسمه "أبو نادر".

بدا كأنّه يحمل داخله جبلًا من الصمت.

في إحدى الليالي، سمعنا أحد المعتقلين يهمس:

"سمعتوا؟ فلان رح ينقلوه ع- تدمر..."

الجملة نزلت متل الطعنة.

الكل سكت.

حتى التنفس صار بطيئ.

فجأة، أبو نادر رفع رأسه، وقال بصوت واطي، لكن فيه رعشة غريبة:

"تدمر؟ سجن تدمر مو معتقل... سجن تدمر هو مسلخ بشري."

نظرنا إليه، وواحد همس:

"يعني شو؟"

أبو نادر ابتلع ريقه، وقال:

"كنت هنيك سنة كاملة... وما حكيت، ولا مرة. مو لأنو ما بدي... بس لأنو الذكريات بتحرق."

قلتله:

"شو بيصير هنيك؟"

أغلق عينيه للحظة، ثم قال:

"بيبدأ كل شي أول يوم... بينزلوا فيك بحفلة إستقبال ، ما في أسئلة، ما في أسماء، بس ضرب...

إذا وقفت، بتموت.

إذا صرخت، بتموت.

إذا طلعت، بتموت."

سكت.

لكن الكل كان عم يسمعه.

تابع:

"الأكل قطعة خبز وحدة بالنهار. المي يادوب تلاقيها. الحمّام؟ بتطلب الإذن... وإذا حدا حكى معك، بتنضرب انت وهو."

ثم نظر إليّ، كأنّه يحكي لي وحدي:

"شفت شب، عمره 19 سنة، قتل بين إيديهن تحت التعذيب

التهمة ؟! كانت جاهزة إرهاب وعمالة

ما حدا دفنه. خلّوه يتفسّخ، مشان الكل يشمّ."

رجل في الزنزانة سأله:

"يعني في تحقيق؟ تهم؟ محكمة؟"

ضحك، بس ضحكة فيها مرارة شي مكسور:

"محكمة؟ التهمة إنك تنفّست،

والحكم بيصدر قبل ما تدخل.

تدمر ما بيحكوا عنه بالسجون... تدمر المساجين بتخاف تجيب سيرتو حتى ما تصيبهن لعنتو ."

ثم همس:

هون يعتبر فندق مقارنة فيه

"أنا طلعت منو ، بس وعيي ضلّ هنيك.

وإذا في جحيم، هو هداك المكان...

بس الفرق: جحيم بلا نار... في موت كل يوم وبأي وقت ممكن يجي دورك ... وأنت مافيك تعمل شي غير تستنى دورك ."

وأنا أسمعه...

عرفت أن هناك موتًا لا يحتاج للقتل.

هناك أماكن تُفرغك من كل شيء... حتى الأمل.

وفي تلك اللحظة، عرفت أني... إذا خرجت،

لن أكون صحفيًا

ولا طالبًا

ولا ابن ضابط.

سأكون فقط واحدًا من الذين لم يموتوا بعد...

وممن قرروا أن لا يسكتوا أبدًا.

"صفقة من أجل النفس"

لم يعد لدي مكان أذهب إليه.

كل باب طرقته، كان مجرد واجهة مدهونة بالكذب، خلفه فراغٌ مطبق، أو نظرة شماتة، أو همس يقول: "مالك غير فلان".

فلان...

الاسم الذي يُقال بخوف، أو يُلفظ همسًا:

" أبو حيدر... إذا حدا بيطلّع ابنك، هو المعلم أبو حيدر."

كان هذا الرجل ظلًا في الدولة. لا أحد يعرف رتبته الحقيقية، ولا موقعه، لكنه موجود في كل الملفات.

يُقال إنه "العرّاب".

إذا دفعت، تُفرج.

وإذا لم تدفع... تُنسى وتُهمل في ذاكرة السنين.

أوصلني أحد الوسطاء إليه، في مكتب فخم، بعيد عن أي مقر رسمي.

مكيف يعمل بلا انقطاع.

سجادة نظيفة.

وموظف يجلس خارج الباب، كأنه سكرتير في شركة سياحية.

دخلت.

كان جالسًا خلف مكتب ضخم من خشب داكن، يضع نظّارة صغيرة، ويقلب أوراقًا.

لم ينظر إليّ مباشرة.

قلت:

"سيدي... أنا والد سامر. النقيب فلان. ابني معتقل، وصلني إنه بخطر... وأنا مستعد..."

رفع عينيه، ببطء، وكأنه سمع هذه الكلمات مليون مرة.

قال، بصوت منخفض، بلهجة ثقيلة، أقرب للتهكم:

"إي بعرفك. نقيب... وضابط ابن دولة. بس ابنك طلع تكرها، ما هيكي؟"

بلعت ريقي. لم أُجب.

قال:

"وبدك نرجّعلك ياه... من فرع فلسطين؟ قبل ما يحاكموه؟"

نظرت إليه مباشرة، وقلت بصوتٍ مكسور:

"إذا في أمل... أنا بعمل اللي بدك ياه."

ضحك قليلا ً.

ثم وضع نظارته على الطاولة، وقال:

"في أمل... بس مو بلاش."

صمت.

ثم قال:

" 10ملايين.

اليوم قبل بكرا.

وبنوصي عليه... وإذا مشي الحال، بتسمع خبر بعد أسبوع."

تجمدت.

10ملايين؟

رقم لم أحلم به، وأنا ضابط براتب بالكاد يغطي الطعام.

قلت:

"سيدي... أنا ضابط. بخدم الدولة من أكتر من 15سنة . عندي شرفي، ومبادئ... ."

ردّ بسرعة:

"بدك تشيل ابنك من الجورة؟

ادفع.

لأن ابنك مو حالة إنسانية.

ابنك ملف.

والملف بدو ختم.

والختم إلو سعر."

شعرت أنني أختنق.

قلت بصوت خافت:

"لو ما بدّك تساعدني، قول من الأول..."

قال:

"أنا ساعدتك... قلتلك السعر.

وإذا ما عجبك؟

فيك تستنى قرار المحكمة .

وبيطلع بعد 15 سنة... إذا ما مات قبل."

نهضت.

رأسي يدور، صدري يحترق.

عند الباب، سمعته يقول بهدوء:

"سماع... وإذا قررت تدفع، لا تنسى تجيب المبلغ بظرف أبيض، مغلف.

نحنا دولة نظام... ما منشتغل بالأسود."

خرجت، ويداي ترتجفان.

في تلك اللحظة، عرفت:

هذا النظام لا يقتلك فقط...

بل يطلب منك أن تدفع ثمن رصاصته، وتقول له: شكرًا.

"ثمن النفس"

عشرة ملايين.

قالها وكأنها رقم عادي.

روتين يومي بالنسبة له

كم من الأهالي كان قد ساومهم على حياة أبنائهم

الله وحده يعلم .

عدت إلى البيت، ولم أستطع أن أخبر أحدًا.

كيف أقول لزوجتي إن حياة ابننا لها سعر؟

كيف أقول لفارس الصغير إن أخاه محبوس، وعلينا أن ندفع فدية كما لو كان رهينة عند عصابة؟

دخلت غرفتي، جلست وحدي، وأغلقت الباب.

كنت ضابطًا.

كنت أُقسم كل صباح على حماية البلاد.

واليوم... أنا أبحث عن مشترٍ لابني.

بدأت أولًا ببيع الذهب.

زوجتي فتحت خزانة الملابس، أخرجت كل شيء.

أساورها، حلقها، حتى محبس خطوبتنا.

قالت وهي تضحك ضحكة مرة:

"كنت دايمًا قول بدي أترك شي لفارس وليلى...

بس اليوم، خليهن يضحوا كرمال أخوهن."

ذهبت إلى الصائغ.

نظر إلى القطع، قلبها، وزنها ،وقال:

"الوقت مو مناسب لتبيع الدهب ابدا

الناس عبتحول مصاريها لدهب وانت جاي تبيع غريب

على كل حال رح أدفعلك .... ."

مليونان ونصف.

من أصل عشرة.

ولم أملك سوى أن أقول: "ماشي."

الخطوة التالية كانت أصعب.

اتصلت بأخي.

قال لي فورًا:

"رح حاول دبر شي... بس والله الشغل واقف، مو طالع بالأيد شي ..انت بتعرف .. ."

ذهبت إلى أحد أصدقائي القدامى، رجل أعمال صغير أعرفه منذ الخدمة العسكرية.

قلت له بصوت مهزوز:

"ابني بخطر... إذا فيك تساعد."

نظر إليّ طويلا ً، ثم قال:

"هلق لعرفت شو معناتها أمن الدولة؟ سامر بس بداية... ولسا في غيره كتير.

بس رح ساعدك... مشانك."

أعطاني مليونًا.

كل من طرقت بابه، كان ينظر إليّ نظرة شفقة، أو خوف، أو حذر.

كأنهم خائفون من أن يلتصق بهم اسم سامر... أو يشكّ أحد أنهم متعاطفون معه.

بعت قطعة أرض صغيرة كنت قد تركتها لخريف العمر

بعت الغسالة.

بعت سيارتي القديمة.

مدّدت يدي لأول مرة في حياتي.

وفي يوم متأخر من الليل، جلست أنا وزوجتي على الأرض، وأمامنا كومة من الأوراق و الظروف والدفاتر، نحسب ونعدّ ونجمّع.

قالت وهي تحبس دموعها:

"هاد مو مبلغ ... هاد تمن روح ابني."

بعد أسبوع من الركض، والسقوط، والانكسار، كنت أحمل كيساً فيه عشرة ملايين كاملة.

أعطيت الكيس للوسيط.

لم يكن هناك توقيع، ولا إيصال، ولا دليل.

قال لي:

"بنبلغ العميد... وإذا إجاك اتصال خلال 5 أيام، معناها كل شي تمام."

سألته بصوت مبحوح:

"وإذا ما إجا؟"

قال بهدوء:

"وقتها بتكون وقعت بمصيبة كبيرة ... وبتدفع مرة تانية، أو بتنسى."

أيام الانتظار كانت أطول من سنوات عمري كلها.

كنت أجلس على الهاتف كأنه جهاز تنفس.

كل صوت رنين يجعل قلبي يرتفع إلى حلقي.

وفي اليوم الخامس، في المساء، رن الهاتف.

رفعت السماعة بسرعة.

كان الصوت خشنًا، مختصرًا:

"سامر رح يطلع... حضّر حالك بعد يومين."

أغلقت الهاتف.

لم أبكِ.

لم أصرخ.

لكنني نظرت إلى الجدار، وهمست:

"هاد مو نصر... هي صفقة.

نحنا اشترينا نفس، من سوق الأرواح."

"الباب يُفتح... و لا أحد يتنفس"

في ذلك الصباح، كانت أمي قد استيقظت باكرًا، كما تفعل منذ غياب سامر...

لكنها اليوم لم تجلس قرب النافذة.

كانت تمشي في البيت بلا هدف، تمسح الغبار عن طاولة نظيفة، تضع ماء على النار، ثم تنساها.

أبي كان صامتًا. جلس في المطبخ، يدخّن سيجارة وراء الأخرى، لا ينظر إلينا.

فقط عيونه على هاتفه.

أنا جلست على الدرج. لا أريد أن أذهب إلى المدرسة.

ليلى كانت تسأل:

"ماما، اليوم رح يرجع سامر؟ أكيد؟"

وأمي كانت تبتسم وتقول:

"إن شاء الله... إن شاء الله."

لكن عيونها كانت تقول شيئًا آخر.

عند الظهر، سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب.
ثلاث دقّات... ليس أكثر.

لم يتكلّم أحد.
لم نتحرّك.

ثم نهض أبي بسرعة، فتح الباب...
وتجمّد.

سامر.

كان واقفًا.
هزيلًا.
وجهه شاحب.
ذقنه طويلة.
عينيه غائرتان.
كأنه أكبر بعشر سنين.

وقف هناك للحظة، ثم قال بصوت مبحوح:

"مرحبا..."

أمي صرخت،

"سامررا!"

ركضت نحوه، ضمّته بقوة،

لكنّه لم يضمّها.

يداه بقيتا معلقتين على جانبيه.

ليلى بدأت تبكي فورًا،

"سامرا! سامرا! رجعت!"

أما أنا، فوقفت بعيدًا.

أراقبه.

أعرف أنّه هو... لكن ليس هو.

حتى أبي... لم يتقدّم.

فقط قال بصوت منخفض:

"تعال فوت لجوا..."

دخل سامر.

جلس على كرسي، بصمت.

أمي كانت تبكي وتتحسّس وجهه، لكنّه لم يكن يتجاوب.

قالت له:

"أكلت شي؟ بدك شي؟ بدك تتحمم؟"

أشار برأسه: لا.

نظرت إليه، وسألته بصوت خائف:

"ضربوك...؟"

لم يجب.

لكن يده ارتفعت فجأة، ولمس جبينه.

كان هناك أثر كبل، عميق، مزرقّ...

في المساء، لم يتكلم.

لم يسأل عن أحد.

لم يخبر أي قصة

فقط جلس قرب الحائط، وراح يحدّق في اللاشيء.

حتى ليلى، اقتربت منه، ووضعت رأسها على ركبته،

فلم يحرك يده.

وفي الليل، سمعته أخيرًا يهمس، ظنًا أن لا أحد يسمعه.

قال:

"أنا طلعت من الباب... بس في شي مني لسه جوّا."

"في بيتنا ناران"

مرّ أسبوع على خروج سامر.

كان جسده قد بدأ بالتعافي، أما عينيه، فلا.

في إحدى الليالي، جلسنا على المائدة.

كان أبي يشرب الشاي بصمت، وأمي تحاول أن تبدو طبيعية.

قال سامر فجأة، دون مقدمات:

"أنا كنت مع معتقل من حرستا... مات قدامي. كسروله ظهره وقالولو: موتك أريحلنا."

رفع أبي رأسه ببطء.

"ليش عم تحكيلي هالحكي؟"

قال سامر، بنبرة صلبة:

"لأنك بتعرف إنو صح. لأنك ضابط... وبعرف إنك عبتسمع قصص متل هي كل يوم."

أجابه أبي، محاولًا كبح غضبه:

"أنا ضابط، ماني قاضي... وما دخلني شو عبيصير بالفروع."

سامر، بصوت هادئ لكنه لاذع:

"بس سكوتك بيغطي الدم. وسكوتك أكبر جريمة أنت وامثالك سبب بإستمرار آلة القمع والوحشية تبع أجهزة الأمن."

أمي قالت:

"خلص بقى، الله رجّعك سالم... خلينا نعيش."

لكن سامر ضحك، ضحكة موجوعة:

"أنا ما رجعت سالم... أنا رجعت شاهد."

وترك المائدة، ودخل غرفته.

أبي بقي ساكنًا...

لكن يده كانت ترتجف وهو يمسك كأس الشاي.

في صباح اليوم التالي، دخل أبي غرفة سامر.

أغلق الباب، وقال بنبرة جافة:

"بدك ترجع عالجامعة... وتنسى اللي صار."

سامر ردّ بسرعة:

"ما فيني أنسى. ولا رح أرجع طالب متل قبل."

أبي قال:

"في بلد عم تنهار... ما وقت شطحاتك!"

سامر:

"إي، عم تنهار، لأنو إلي متلكن ساكتين."

اقترب منه أبي، نظر في عينيه، وقال:

"أنا سيكّت مشانك... دفعت دم قلبي لطالعتك... لتعيش .. وتكبر قدامي ، مو مشان تحكي متل ناشط بفيسبوك.. يا أبني مابدي أخسرك "

سامر، بصوت هادئ، لكن عينيه تتوهجان:

"شكراً إنك طالعتني... بس أنا مو ابنك وبس. أنا ابن هدول اللي جوّا كمان... واللي مافي حدا يساعدهن ويطلعهن."

لحظة صمت ثقيلة.

قال أبي، بنبرة مكسورة:

"بدك تموت؟"

رد سامر، بابتسامة صغيرة حزينة:

"أنا متت هنيك... بس طلعت، مشان ما يموت غيري."

البيت ظل صامتًا ذالك اليوم.

لكن داخلي... لم يكن.

كنت أشعر أن شيئًا يقترب.

شيئًا لا يشبه الخوف، بل يشبه الحقيقة التي لم يعد ممكنًا كبتها.

دخل أبي الغرفة، كان يرتدي بزته العسكرية، الفرق الوحيد بينه وبين السفاحين في الفرع

هو أن هنالك أسمٌ يجمعني به .

قال بصوت ثقيل:

"لازم نحكي."

رفعت نظري، كنت أكتب شيئًا في دفتري.

أغلقته، ونظرت في عينيه.

"احكي."

جلس أمامي، أخذ نفسًا عميقًا:

"سامر... كبرت. صرت رجال. بس في شي لازم تفهمه... البلد مو لعبة، والسياسة مو حكي شوارع. اللي عم تعملو رح يجرّنا كلنا عالهاوية."

ضحكت. ضحكة قصيرة، مشبعة بالمرارة.

"يعني نحنا مو بالهاوية هلق؟

ما كنت عم تشوف الهاوية وأنت عبتهتف لهيك نظام

وأنت عبتمجد الطاغية ليل نهار ؟

ما كنت تشم ريحة الدم وانت رايح ع شغلك كل يوم

ما عبتقرا الخوف بملامح ووجوه الناس ؟"

صمت.

تابعت:

"أنت بتعرف كل شي، بس ما بدك تصدّق...

لأنك ضابط، ولازم تضل واقف...

بس واقف على شو؟

على جثثنا؟

على صرخاتي جوّا الفرع؟

على جثث المعتقلين اللي انقتلوا وهن معلّقين؟!"

قال من بين أسنانه:

"أنا طلّعتك. دفعت من لحمي مشان ترجع عالبيت..."

قاطعتُه:

"طلّعتني من القبر... بس ما سألتني شو شفت فيه.

ما سألتني عن اللي ماتوا جنبي...

أنا كنت رقم، رقم بزنزانة.

وانت كنت هون، نايم ببيت دافي، بتقول لنفسك: أنا ما دخلني."

وقف. صار وجهه أحمر.

"سامر .. انا ضابط بالنهاية حركاتك هي بتدمرني قبل ما تدمرك

ليش ما عبتفهم الشي الي عبتعملوا ما بطولة أبدا بالعكس

هي خيانة لنفسك لأهلك لوطنك "

وقفت أمامه، نظرت إليه كما لم أنظر له من قبل.

"عنجد انت مرتاح ؟

معقول مقتنع بهالحكي !.

كنت عايش على كذبة اسمها 'الوطن'.

الوطن الحقيقي جوّا المعتقل، على وجوه اللي ما رجعوا،

على دمع أمي، وعلى صرخة كل أم معتقل."

اقترب مني خطوة.

صوته انخفض، لكنه صار أكثر ألمًا:

"بدك تقتلني؟

كل يوم عم تطعن فيني...

أنا أبوك، يا سامر."

نظرت إليه طويلًا.

ثم قلت بصوت هادئ... لكن لا يُنسى:

"وانا ابنك.

والخنجر اللي قتلني...

كان بإيدك، من أول ما قررت تسكّت."

سكتنا.

كان الصمت بيننا أعمق من أي صراخ.

ثم خرجت.

أغلقت الباب خلفي.

وتركت قلب أبي خلفي...

ينكسر لأول مرة.

بداية التشقق

لم أعد أفهم بالضبط ما تغيّر، لكنني بدأت ألاحظ ذلك التغيّر بعيني.

لم يكن شيئًا محددًا... لا خبرًا، ولا صورة، ولا كلمة قيلت أمامي، إنما كان كل شيء معًا يتجمع كغبار دقيق، غير مرئي، لكنّه يختنق به القلب.

كنت أراقب سامر منذ عودته، دون أن أقترب منه كثيرًا.

ليس من خوف، بل لأن شيئًا جديدًا في حضوره يجعل الاقتراب يبدو وقاحة.

لم يعد أخي فقط... أصبح شيئًا آخر، شيئًا صامتًا وثقيلًا، كأنه باب صدئ على ذاكرة لا يريد أحد فتحها.

في اليوم الثالث، رأيته يجلس في الزاوية، عيونه المفتوحة بلا نظر، كأنه لا يرا شيئًا.

جلست في الجهة المقابلة، وأخذت أقلّب صفحات كتابي، بصوت أعلى من المعتاد، فقط لأقول: "أنا هنا."

لكنه لم يلتفت.

قلت له:

"بدك شيء؟ عطشان ؟ شيء تأكله؟"

هزّ رأسه بالنفي.

نفس الهزة في كل مرة.

سامر .. سامر ..... سامر

إلتفت إلي بهدوء

شو صار معك جوا شو شفت

فيك تحكيلي

وبعد دقيقة، همس دون أن يرفع نظره:

"ما تسألني عن شي... في شغلات إذا حكيتها، بتصير أنت جوّاها."

لم أفهم تمامًا، فبقينا صامتين.

في المدرسة، بدأ كل شيء يبدو سخيفًا.

الأساتذة يصرخون، والطلاب يضحكون، والدفاتر تمزّق ثم تُنسى.

كنت أسمع ضجيج الصف، لكنّني لا أشاركه، فهناك شيء آخر يشغلني، لا أعرف اسمه، ولكنه يُربكني.

شيء كالوحشة التي لا تخصّني... ومع ذلك تسكنني.

في الاستراحة، اقترب مني حسام وقال:

"أخوك كان في المعتقل، مو؟ شو عمل؟"

لم أجب.

قالها وكأنه يتحدث عن أمر تافه، وكأن المعتقل مكان يُزار، ثم يُنسى.

نظرت إليه وأدركت الفرق بين من يسمع ومن يرى، بين من يردد ومن يعرف.

قلت له:

"أخوي ما عمل شي... بس في ناس بيكفي إنهم يكونوا موجودين ليتعاقبوا."

ضحك، تلك الضحكة السخيفة

قال:

"إي، بس النظام ما بحب الحكي الكتير."

نظرت إليه طويلًا، ثم قلت:

"وأنا ما عدت أحبّ السكوت الكتير."

في المساء، كنت أكتب شيئًا على دفتر العلوم، ثم توقفت.

نظرت إلى السطر الذي كتبته، ثم مزقته.

لم أفهم لماذا، لكني شعرت أن الكلمات لم تعد كافية.

خرجت إلى الشرفة، ورأيت أبي عائدًا ببدلته العسكرية، يمشي ببطء، كما لو أن كل خطوة تجر وراءها وزنًا غير مرئي.

فكّرتُ: هو يمشي... لكن في داخله، يقلب الأمور يفكر ويعود ثانية من حيث بدأ .. لأ

أول مرة أشفق عليه ،أبي ذالك الجبل المهيب ، لطالما أعتقدت أن بمقدوره محاربة العالم لو أراد .. يبدو الآن كعجوز يجر خيبات السنين .

وأنا؟

أكبر بسرعة لم أكن أتوقعها، ليس لأنني أريد ذلك، بل لأن الحياة تدفعني بعنف.

ما عدت متأكدًا من معنى "الوطن".

لكنّي متيقن أن سامر يرى شيئًا نحن لم نرَه، وأن قلبي، من الأعماق، بدأ يسمع صوتًا جديدًا...

صوتًا لا يصرخ، لكنه يقول الحقيقة، بهمس يكسر الحجر.

[مشهد: السكن الجامعي – دمشق – ليلة 22 نيسان 2011]

الغرفة ضيقة، أربعة شباب، وجوههم شاحبة تحت ضوء النيون الباهت. صوت المروحة يلفّ بالغرفة كأنها تعيد نفس الهمس. تلفزيون مغلق. الموبايلات على الصامت. قلب كل واحد منهم يدق كأنه طبلة.

سامر واقف عند الشباك، يدخن بضجر مملوء بالتوتر. نضال جالس على السرير السفلي، ظهره محني. عمار ممدد ورافع رأسه للسقف. نبيل يتمشى داخل الغرفة كأنه حيوان محبوس بقفص.

نضال (بصوت خافت):

"بتتذكروا درعا؟ بتتذكروا 18 آذار؟ أول ما بلشت؟

الولاد كتبوا على الحيطان...

'إجاك الدور يا دكتور'... شو صار؟

أظافرهم انقلعت ... لك اليوم إذا طفل صغير هز كيان الدولة وحرك ماكينة الأمن

بأي عقل بينقلع ضفر ولد عمره 12 سنة.. شو هالوحشية شو هالمنطق ... ما عبفهم؟!"

سامر (ينفخ دخان السيجارة):

"دولة ؟! . هاي منظومة قمعية أبعد ما يكون عن مسمى دولة فقدت الإنسانية تماما .. .
من يوم ما وعيت على الدنيا وأنا سامع عن ابن العميد يلي بيمشي بسيارته فوق العالم،
عن ابن الوزير يلي بياخد مقعد طب من دون ما ينجح بالبكالوريا.
بس لما بلش الدم ينزل من درعا... فهمت.
النظام مو بس فاسد... مجرم."

نبيل (ينفجر):
"بس نحنا مو درعا! نحنا بالشام!
يعني إذا تحركنا، الجيش رح ينزل عالشوارع، مو رجال أمن... دبابات!"

عمار (بهدوء مشوّب بالغضب):
"وإذا سكتنا، منكون عم نقول: تمام، كملوا قلع أظافر الولاد.
كملوا قتل المعتقلين بالتعذيب.
سامع الأخبار عن سجن صيدنايا؟ عن تدمر؟
يا زلمة، هدول ما بيعرفوا رحمة."

نضال:
"يا جماعة، بكرا جمعة، والناس بلشت تحكي.
قال في تنسيق عبينعمل لمظاهرة كبيرة بالشام... بباب سريجة، أو بالميدان، يمكن بـ
التضامن.
في طلاب رح ينزلوا من الجامعة."

سامر (يقترب ويجلس جنب نضال):
"أنا كنت عم إتواصل مع واحد من تنسيقية داريا. قال لي: بكرا هي المحطة.

إذا طلعت مظاهرة بالشام... كل شي رح يتغيّر.

مو بس رمزية... العالم رح تقتنع إنو النظام مالو هيبة، النظام مجرد خوف،

وإذا انكسر... سقط تلقائيا."

نبيل (بتردد):

"بس كيف؟ كيف بدنا نبلش؟ شو بنهتف؟

ما بدنا شعارات فاضية. بدنا شي حقيقي يمثل الوجع."

عمار (ينهض ويبدأ يمشي):

"بنهتف باسم درعا. درعا هي الشرارة.

'من درعا لدمشق... الشعب السوري واحد'

' منحي المحافظات حلب .. حماة....حمص ...منحمسهن'

'يا بشار ويا جبان... خذ جيشك عالجولان'

'سلمية سلمية... ورصاصكن ما بيهمنا'

وإذا صار ضغط... بنركز على المعتقلين.

'بدنا المعتقلين... والمجرم للمشانق'."

نضال (بحماسة مكبوتة):

"بنقسم حالنا مجموعات. كل 3–4 شباب بيوقفوا بمكان مختلف.

إذا إجوا الشبيحة ، ما بيقدروا يلمونا كلنا.

بنصير نتحرك، نجذب الناس، وبس تكبر، بنجتمع."

سامر:

"والبنات؟ عنا 3 من دفعتنا بدهن يشاركوا.

بس لازم نحميهم.

يوقفوا عالطرف، ويلوّحوا بإيدهم. الصوت بيكفي.

ما في داعي ينزلوا وسط الزحمة."

نبيل (ساكت شوي، بعدين بيحكي):

"أنا ما بعرف إذا خايف أو لأ.

بس بعرف إني تعبت من هالعيشة.

إذا متت... يمكن كون عايشت يوم حرية واحد، بيكفيني."

سامر (يمد يده):

"أنا نازل. مين معي؟"

نضال و عمار بيرجعوا يمدوا إيدهم فورًا.

نبيل يتردد ثواني... بعدين ينضم.

سامر (بهمس):

"بكرا... اما منعيش بكرامة...أو منموت ونحن عمنحاول ."

"صوت الحرية" – {الجمعة العظيمة} 22 نيسان 2011

المدينة كانت خرساء صباح ذلك اليوم.

كأن كل شيء يتنفس بصمت:

الشوارع، البيوت، الأرصفة، وحتى الهواء.

لكننا كنا نعلم أن تحت هذا الصمت... صرخة تنتظر أن تولد.

التقينا عند الحارة القديمة، قرب فرن الخبز.
كنت مع عمار، ونبيل، ونضال.
كل واحد منا يعرف دوره تمامًا، كأننا كتيبة صغيرة...
لكنها مشحونة بالأمل.

نضال همس:
"جامع الحسن هو النقطة... بعد الصلاة، منبلش."
كان عمار يُخفي لافتة تحت قميصه.
أما نبيل، فحمل في جيبه ولاعة قديمة وصورة مطويّة لبشار الأسد.

أنا؟
كنت أحمل في قلبي أسماء الرفاق اللي ما طلعوا من المعتقل.
هني كانوا السبب... وهني كانوا الصوت اللي ما عاد فيني أسكّته.

دخلنا الجامع.
الصلاة كانت أقصر من أي مرة.
كل واحد منا كان يسمع دقات قلبه أعلى من صوت الإمام.

وبعد التسليم...
الصوت الأول كسر الهواء:

"الله، سوريا، حرية وبس!"

ثم آخر:

"الشعب يريد إسقاط النظام!"

ثم فجأة...

كأن المدينة انفجرت.

مئتين، ثلاث مئة، خمس مئة شخص...

الناس كانت تنزل من البيوت، من الزواريب، من المحلات.

بعضهم لا يهتف، فقط يمشي، يتعرّق، يتنفس.

الخوف كان لا يزال في العيون... لكن الأرجل تمشي وحدها.

رفعنا اللافتات.

نبيل أخرج الصورة، أشعل الولاعة.

"حرقوه... بدنا نخلص من عهد الطاغية !"

ارتفعت الصورة في الهواء... وتحولت إلى رماد.

بدأت الهتافات تمزّق الحيطان:

"واحد، واحد، واحد... الشعب السوري واحد!"

"و يالله ارحل يا بشار!"

"بدنا نشيل النظام، ونحاسب كل جبّار!"

"الشعب يريد اسقاط النظام "

الشارع اهتزّ.

المتظاهرون بدأوا يطرقون على أعمدة الكهرباء،

أصوات الطناجر من الشرفات،

ونساء تصرخ:

"معكم! الله يحميكم!"

وفجأة...

السكون قطع.

رشششش... رصاص!

صوت، ثم اثنان، ثم عشرات الطلقات.

رأيت رجلا يسقط على الرصيف، يصرخ:

"لك اتصوبت.. اتصوبت !"

الأمن دخل من طرف الشارع، بلا زي رسمي.

وجوه غامضة، عيون فارغة.

"فرّقوهن لهالكلاب!"

"ضربوهن!"

"لا ترحمو حدا!"

الناس بدأت تركض.

البعض انبطح على الأرض.

آخرون تابعوا الهتاف وكأنهم يركضون نحو القدر.

أمسكت يد نضال.

كان يلهث.

"سامر... سامر هاد يومنا... لا توقف!"

ركضنا وسط الزحام.

هتفنا بأعلى صوت:

"سلمية ... سلمية !"

ثم...صرخة.

نبيل سقط أمامي.

طلقة في البطن.

نضال حاول سحبه، لكن الرصاص الحي حال دون ذالك

وصلت قوت اللا أمن إليه... يا الله أليس من المفترض أن يكونوا أخوتنا

أليس من المفترض .. أن يقف الأمن معنا كما حدث في مصر

من هم هؤلاء ....

وصلوا إلى نبيل ...ثم

رأيتهم يضربونه بعصا حديدية حتى انفجرت رأسه.

لقد جمد العالم من حولي وقفت مذهولا ... نبيل

مجرد طالب جامعي أعزل .. كان لديه حلم يريد تحقيقه

كان يريد فقط العيش بكرامة .. هل هي غالية لهذه الدرجة ...

وبقيت أنا...

أنا وساحة مفتوحة،

وصوت الرصاص.

ودم على الأرض.

ورجال بعيون ضباع.

ركضت، كنت أهتف:

"حرية... حرية!"

لكن صوتي لم يكن يُسمع.

الرصاص صار فوقي.

حولي.

ثم شعرت بشيء يخترق صدري.

برد، ثم حرارة.

ثم ضعف.

سقطت على الأرض.

ضوء أبيض.

صفير...برد....سكون.

سمعت صوت أمي، بعيد كتير، كأنها عم تدعيني على الغدا.

صوت ليلى،

صوت فارس عم يسألني عن شي، ما عم أفهمه.

بس كلشي عم يبعد.

عم يصغر.

أنا عم طير؟

ولا عم أوقع؟

آخر شي شفته...

كان سماء دمشق...

لونها أزرق، بس غامق،

وكأنها عم تبكي.

ما حسّيت بالرصاصة...

بس كنت متأكد...

أنو كان من الضروري كون هون.

كل شي صار ضبابي.

ضل صدى لصوت واحد بس:

"الشعب يريد... إسقاط النظام."

ثم سكت كل شيء.

"قبل أن يصل الخبر"

لم نكن نعرف ما الذي يجري في دمشق.

كنا نعرف فقط أن شيئًا ما... أكبر منّا، أقوى منّا، أسرع من قدرتنا على الفهم... يحدث هناك.

في مضايا، البلدة الهادئة بين الجبال، بدأ الكلام ينتشر كالدخان.

واحدة تقول لجارتها:

"سمعتي؟ في مظاهرة صارت بالميدان... ضربوهن بالرصاص!"

رجل عند باب البقالة يتمتم:

"قال صاروا يصرخوا بإسقاط النظام... هيك علنًا تخيل!"

في بيتنا، كانت أمي تجلس قرب الهاتف، تمسكه وتعيد وضعه مكانه كل دقيقتين، وكأنها تراقب نبضه.

قالت لأبي:

"ليش ما عم يرد؟ سامر ما بيطفي تليفونه بهالطريقة."

أبي لم يُجب.

كان واقفًا أمام النافذة، يرتدي قميصًا رماديًا بسيطًا، وسيجارته بين أصابعه، لكنّه لا يدخّن.

فقط يُمسكها.

قلت له:

"بابا... شو يعني مظاهرة؟ يعني سامر فيها؟"

نظر إليّ، ولم يجاوب.

لكنني رأيت في عينيه شيئًا لم أفهمه وقتها:

خوف، أو ربما إنكار.

في المساء، طرق أبو نزيه الباب.

كان وجهه مشدودًا.

قال بصوت خافت:

"سيدي... عم يقولوا إنو اليوم صار إطلاق نار بباب توما... وناس انضربت."

أبي سأله:

"في أسماء؟ في قوائم؟ في مصادر موثوقة؟"

أبو نزيه هز رأسه:

"ما في شي رسمي... بس الناس عم تحكي. قالوا شافوا شب متل سامر... واقف ب
المقدمة."

أمي شهقت.

ليلى بدأت تبكي.

أما أبي... فجلس بهدوء على الكرسي، ومدّ يده نحو الطاولة يبحث عن ولاعته.

لكنه لم يجدها.

قال:

"مظاهرات؟ ما بيكفّي البلد شو فيها؟

كل مين بيصرخ بالشارع بيصير مناضل؟

ما بيعرفوا شو عم يعملوا... عم يخربوا البلد بيدهم."

قلت له:

"بس سامر قال إنو لازم نحكي... إنو ما لازم نخاف."

نظر إليّ نظرة طويلة.

ثم قال بهدوء:

"سامر شب، وبيتأثر... بس ما بيعرف شو يعني تسقط الدولة."

لكنني كنت أعرف.

حتى أنا، الطفل، كنت أشعر أن شيئًا ينهار تحت الأرض.

وأن هناك خبرًا...

سيصل.

قريبًا.

"عاد في صندوق"

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً.

البيت غارق في صمت غريب.

صوت الثلاجة، خطوات أمي الخفيفة، لهاث ليلى وهي نائمة، ثم تنهيدات أبي كل عشر دقائق، كأن صدره يحاول أن يتخلّص من كتلة لا تذوب.

فجأة، سمعنا طرقًا خافتًا على الباب.

ثلاث دقات... فقط.

لم يتحرّك أحد.

ثم الرابعة... أقوى.

أبي نهض ببطء، كأنه يعرف.

فتح الباب.

وعند العتبة... كان التابوت الخشبي.

اثنان من الشباب من الحيّ أوصلوه،

لم يتكلّموا، فقط أشاروا إلى الورقة المرفقة.

ثم تركوه... ومضوا.

أنا كنت واقفًا في الممر.

أمي خلفي، لم تتحرّك.

ليلى خرجت من غرفتها، تمسح عينيها، وقالت:

"مين إجا...؟ سامر؟"

لكن سامر لم يكن واقفًا.

كان ممدّدًا داخل صندوق مغلق بمسمارين.

أبي وقف أمام التابوت.

حدّق فيه، ثم جلس على الأرض.

لم يُصدر صوتًا.

أمّي ركضت نحوه، أمسكت الخشب، وصرخت:

"هاد مو ابني!

هاد مو سامر!

افتحوه!

خليني شوفو!

وينو؟ وين وجهو؟"

لكن التابوت كان مختومًا.

واحد من الشباب قال:

"قالوا ما بيصير ينعرض... الإصابة بالرأس مهشم، والوجه مشوّه جدا."

أمي انفجرت بالبكاء.

"يعني جابولي إبني جثة؟

ما شبعوا منو جوّا؟ كمان برا؟

ما خلّولي حتى وداع؟"

أبي لم يقل شيئا.

كان جالسًا، ينظر للأرض، ويده على فخذه، ترتجف.

ثم قال همسًا:

"رجّعولي سامر... بس مو سامر.

رجّعولي ضميري."

أنا؟

كنت واقفًا عند الحائط، أراقب كل شيء.

للمرة الأولى أعرف معنى الموت ... وأكثر من ذالك عرفت الآن أن هذه لم تعد عائلة وحسب .

هذا بيت، داخله صوت مكتوم اسمه الفقد.

ليلى جلست عند قدمي التابوت، وضعت رأسها عليه، تبكي بحرقة.

وأمي؟

كانت تبكي، وتضرب صدرها، وتردد:

"كان عايش... كان عم يحكي...

ليش قتلتوه؟

ليش قتلتوه؟

ليش قتلتوه؟"

الحي كله حضر.

لكن لم يجرؤ أحد على رفع صوته.

فقط فارس، في الداخل، سمع كل شيء...

وسجّل في قلبه أن ما قُتل في تلك الليلة، لم يكن سامر وحده...

بل صوت الحقيقة

"دفنوا الجثث... وولد الشارع" – 23 نيسان 2011، مضايا

خرجنا من البيت في ظهيرة ثقيلة.

السماء صافية، لكن قلوبنا كانت معتمة.

أمام الباب، كان التابوتان ينتظران...

تابوت سامر، وتابوت نبيل.

الناس وقفوا في صفوف، نساء من النوافذ يلوّحن بآيات، رجال يضغطون على أكتافهم كأنهم يحملون جبالًا، وأصوات مكتومة لا تعرف إن كانت بكاء أم دعاء.

أبي لم يتكلم.

كان يسير خلف التابوتين، يجر رجليه جرًا

لا نظرة منه... ولا نفس.

أمّي بقيت عند الباب، ترتجف كأنها ستسقط، تردّد:

"خلوني ودعوا ... بس دقيقة وحدة ... الله يخليكن...."

لكن التابوت مغلق، ومختوم.

في الشارع، كان الناس يتجمّعون كأن شيئًا فيهم كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات.

أبي وقف جانب الباب.

نظر إلى التابوتين، وارتجف فكه.

لم يقل شيئًا.

مشينا جميعًا باتجاه المقبرة القديمة.

الناس كانت تتوافد من كل أطراف مضايا.

الطريق امتلأ خلال دقائق.

ثم... بدأ الهتاف:

"يا شهيد ارتاح ارتاح... نحنا منكمل كفاح!"

ثم:

"واحد، واحد، واحد... الشعب السوري واحد!"

ثم:

"حرية حرية حرية!"

ثم...

صوت غريب.

من بين الصفوف، شاب مجهول صرخ فجأة:

"بالروح بالدم، نفديك يا بشار!"

الناس سكتت للحظة.

ثم آخر صرخ نفس الجملة...

وثالث بدأ يصوّر بالكاميرا، وهو يلفّ حول النعش.

تجمّد الجمع لحظة.

الصوت لا يشبه الباقي.

خشن، متصنّع، مكسور الإيقاع.

التفتنا...

رأينا ثلاثة رجال بين الحشود، بلباس مدني، يرفعون صورة كبيرة لبشار الأسد.

أحدهم كان يصوّر بالكاميرا.

نبيل – لو كان حيًا – لكان أوّل من رمى عليهم حجارة.

لكن الآن، صرخ عمار:

هدول"شبيحة! هدول مو من البلد!"

رجل كبير السن اقترب منهم وقال:

"عيب عليكم! هاد سامر شهيد... مو مهرجان تأييد!"

الشبيحة تراجعوا لحظة... ثم بدأ الاشتباك.

شاب من الحيّ حاول نزع الصورة... فركله أحدهم.

ثم سمعنا الصوت الذي لم نكن نريده أبدًا:

طخ!... طخ! طخ!

الرصاص بدأ.

من سطح بناء قريب، رأينا ظلًا يتحرك...

قناص.

أول من سقط كان شابًا اسمه حسام.

رصاصة في الصدر، ووقع جثة هامدة

ثم آخر، صرخ:

"انضربت! انضربت!"

الموكب تفجّر...

نساء صرخن، رجال ركضوا، أطفال وقعوا أرضًا.

أبي أمسك بكتفي بقوة وقال:

"فارس! إلزم الحيط! ما بدي أفقدك كمان!"

لكن نظرته لم تكن نظرة ضابط.

كانت نظرة أب... يعرف تمامًا من الذي أطلق الرصاص.

صوت طلقات سريع، مرّ فوق الرؤوس... ثم دخل في أحدهم.

شاب اسمه كريم، عمره 17 سنة، سقط أمامي.

رأيت الدم يفور من رقبته، وعيناه مفتوحتان.

ثم، امرأة تصرخ:

"ساعدوني... ابني! ابني!"

ثم، تكبيرات، ثم هرج، ثم بكاء.

أبي ركض باتجاه الصوت، صرخ:

"انسحبوا! في قنّاص! بعدوا عن الجثامين!"

لكن النار لم تتوقف.

خمسة شهداء في أقل من دقيقتين.

أطلقت قنابل صوتية من طرف الشارع.

وانسحبوا بسرعة...

لكن الدم بقي.

تركوا الرعب في الشارع.

أحد الشبّان جثا على الأرض، رفع يده وهو يصرخ:

"هدول مو من الضيعة... هدول شبيحة النظام!"

خمسة قتلى.

أكثر من عشرة جرحى.

جنازة تحوّلت إلى مجزرة.

وأنا؟

وقفت في زاوية الشارع، أنظر إلى التراب المخضّب، وإلى التابوت الذي لم يصل قبره بعد.

حُملت الجثامين بسرعة.

نُزّل سامر ونبيل في قبرين متجاورين.

حاول عمار أن يقرأ الفاتحة بصوت عالٍ، لكن صوت أمّ نبيل طغى عليه:

"شو عملوا فيكن... شو عملوا فينا... يا الله صبرنا بس يا الله...."

أبي جلس على التراب.

شاهد جثة ابنه تُغطّى بالتراب، وجثة صديقه بجانبه،

وصرخات الناس تُحاصر روحه من كل مكان.

نظر إلى السماء...الندم ..الحسرة .. الحزن ... مشاعر تحاصر روحه

وقفت عند رأس أخي.

شاهدت الناس تفرّ من المقبرة.

ثم نظرت إلى وجه أبي، الذي لم يعد ضابطًا.

بل صار... أب شهيد.

وكنت أعلم أن هذه الجنازة،

لم تكن النهاية.

بل كانت

ولادة الثورة.. الثورة في مضايا.

"صوت ميت في البيت" – بعد جنازة سامر

منذ أن دفنوا سامر...

لم يعد البيت بيتًا.

في اليوم التالي للجنازة، أغلقت النوافذ.
أُطفئ الراديو.
اختفى ضحك ليلى، وضاع صوت أمي.

أبي... لم يخلع ملابسه العسكرية، لكنه لم يغادر الغرفة.
كان يجلس على الكرسي الذي كان سامر يحب الجلوس عليه،
وينظر إلى الباب كأنّه ينتظر أن يعود.

ليلى سألته مرة:
"بابا... ليش سامر ما رجع؟"

لم يجب.

أمّي كانت تطهو الطعام... لكنها لا تأكل.
تغسل الثياب... لكنها لا تطويها.
تبكي... لكن بلا صوت.

أما أنا، فجلست في الزاوية،
أكتب في دفتري كلمات لم أكن أفهم معناها تمامًا:

"الناس بيكبروا لما بيموت حدا منّن...
وبيصغروا لما ما بيعملوا شي."

ومرّت الأيام.

أسبوع... ثم أسبوعان... ثم ثلاثة.

كل يوم كان يأتي بخبر جديد:

اعتقال ابن أبو حسن.

مداهمة بيت أبو نزيه.

استدعاء خالي على الفرع، وما رجع.

مضايا تغيّرت.
الحيّ صار أهدأ... لكن الخوف فيه أعلى.

الناس ما عادوا يهمسوا باسم سامر...
صاروا يقولوه بصوت مسموع.
وأبي...
كان لا يزال صامتًا،
لكن في عينيه شيء بدأ يتغيّر.

شيء لم نره من قبل.

شيء يُشبه

قرارًا ما زال يختمر... لكنه سيظهر قريبًا.

"مضايا بعد سامر"

لم تعد مضايا كما كانت.

كانت بلدة هادئة، يعرف الناس بعضهم بأسمائهم،

يتشاركون الخبز، والماء، والشتائم الصغيرة عند انقطاع الكهرباء.

لكن بعد جنازة سامر... والمجزرة التي وقعت

البلدة دخلت في حالة هياج

أوّل ما تغيّر كان الشارع الرئيسي.

نُصبت عليه نقطة تفتيش لا تبتسم.

شباب من القرية التحقوا بالمخابرات، ووقفوا فيها.

لكنهم ما عادوا "شباب من القرية".

صاروا "عناصر".

بزّات مموّهة، وجوه باردة، ولهجة واحدة:

"هويتك... شو اسمك... لمين بتشتغل؟"

بدأت الاعتقالات.

أبو نزيه... خُطف من بيته الفجر.

خالي ساري... أخذ من الطريق وهو رايح يشتري خبز.

عمّتي سمعتهم يدقّون باب جارتها ليلا ً... وما رجعت الجارة بعد هيك.

أبي بدأ يستقبل اتصالات كثيرة.

كلها قصيرة، وكلها بنفس النبرة:

"في شي عم يغلي... قول لرفقاتك ينتبهوا."

أبن عمي، عسكري اسمه "علاء"،

أخفى بزته، وغاب ثلاثة أيام.

رجع وهو مكسور، وهمس لأبي:

"في عناصر عم تفكّر تنشق...

بس لسه الكل خايف من بعضه."

أبي سأله:

"وين؟ بأي فرع؟"

قال:

"بالمطار... وبالفرقة السابعة.

ما عاد حدا قادر يتحمّل.

الناس شافت الحقيقة."

وفي السوق، صار الناس يتهامسون:

"قالو في شبان عم يسلّحوا حالهم بالجبال..."

"قال في مجموعة عم تفكّر تعمل شي ضد الحاجز."

لكن الكل كان ينهي الجملة بعبارة واحدة:

"بس إذا انكشفت، راح يطحنونا كلنا."

وفي الليل، جلست بجانب أبي.

كان يراقب الشباك، وصوته منخفض:

"نحنا ماشين على رماد...

بس تحت الرماد في جمر."

سألته:

"يعني رح يولع شي؟"

قال:

"ما عاد في خيار... الولد لما بينذل وبعدين بيموت... أهله ما بيضلّوا مثل ما كانوا."

وأنا كنت أعرف...

البلدة لم تتغير وحسب .

البلدة تتحوّل.

وسامر؟

لم يكن الجنازة الأولى...

لكنه كان الجرس.

والصوت... بدأ يرتفع

"في حضرة الخوف" الثلاثاء، 31 أيار 2011

فرع الأمن العسكري المركزي (ضاحية المزة)

في صباحٍ رمادي، تلقى أبو سامر، استدعاءً عاجلًا إلى فرع الأمن العسكري . كانت ملا محه متجهمة، وعيناه تحملان آثار الأرق والحزن على فقدان ابنه سامر. قاد سيارته بصمت، يمر عبر الطرقات التي كانت تعج بالحواجز الأمنية، متجنبًا نظرات الجنود الذين يعرفهم جيدًا.

عند وصوله إلى الفرع، استقبله ضابط برتبة عميد، بوجه خالٍ من التعبير.

العميد:

"تفضل، لدينا بعض الأمور لنناقشها."

جلس أبو سامر على الكرسي المقابل، يحاول إخفاء توتره.

العميد:

"نحن نعلم أن ابنك كان من المشاركين في المظاهرات الأخيرة في مضايا. ونأسف لما حدث له. ولكن، يجب أن نضمن ولاءك الكامل للدولة في هذه الأوقات العصيبة."

أبو سامر:

"أنا ضابط في الجيش، وولائي للوطن."

العميد:

"جيد. لدينا معلومات عن تحركات مشبوهة في مضايا. ونحتاج إلى تدخل سريع لضبط الأمن هناك. سيتم تكليفك بقيادة وحدة لتنفيذ عمليات تفتيش واعتقالات في المنطقة."

شعر أبو سامر بصدمة داخلية. كيف يُطلب منه أن يقود عمليات ضد بلدته، ضد جيرانه وأصدقائه؟

-"هل هناك أدلة على هذه التحركات؟"

العميد:

"لدينا تقارير استخباراتية. لا مجال للشك. هل هناك مشكلة في تنفيذ الأوامر؟"

-"لا، سأنفذ الأوامر."

غادر الفرع، وقلبه مثقل بالأسى والتردد. كان يعلم أن تنفيذ هذه الأوامر يعني مواجهة أهله وأحبائه، وربما التسبب في مزيد من الألم والخسارة.

قاد السيارة وحده.

كان الطريق إلى مضايا قصيرًا، لكنه في تلك الليلة بدا أطول من المعتاد.

لا موسيقى.

لا راديو.

فقط صوت المحرّك، وصفير الريح التي تدخل من شقّ الزجاج الأمامي.

كان يحاول أن يتذكر كيف كان الطريق حين ذهب صباحًا...

أما الآن، فقد صار مليئًا بالأسئلة.

كيف يطلبون منه أن "يُعيد الأمن" إلى البلدة التي دفن فيها ابنه قبل أسابيع؟

هل يظنّون أن الموت ينظّف الشوارع؟

هل يتخيّلون أن الناس ستنسى سامر... لأن بيانًا رسميًا قال إنه "مندس"؟

شدّ على المقود.

كفّه كانت تتصبّب عرقًا، رغم برودة الجوّ.

"اقتحموا مضايا... فتّشوا البيوت... اعتقلوا العناصر المشتبه بهم...
واستخدم القوّة إذا لزم الأمر."
بهذه البرودة... بهذه الكلمات.

لم يطرح أحد في الفرع سؤالًا عن ماضيه، ولا عن ابنه، ولا عن ولائه الحقيقي.

فقط نظروا إلى رتبته، وقالوا له:
"افعل ما يُطلب منك... أو نفعله نحن."

وصل إلى مداخل مضايا عند الغروب.
وقف بسيارته قرب أوّل حارة، ولم ينزل.

كان يسمع من بعيد أذان المغرب.

وكل جملة سمعها في الفرع... كانت تصطدم بصوت سامر وهو يهتف:
"واحد، واحد، واحد... الشعب السوري واحد."

ضغط على جبهته بأصابعه.
ثم أغلق عينيه.

"أنا ابن هالبلد...

بس ما بعرف إذا البلد لساتها إلنا."

نزل من السيارة.

مرّ بشباب من الحي، كانوا يلعبون كرة القدم.

أحدهم توقف، نظر نحوه، ثم همس للآخر:

"هاد أبو سامر..."

والثاني ردّ:

"الله يصبّره... بس ليك رتبته."

سمعهم.

وسكت.

مشى ببطء نحو بيته.

في جيبه أمر عمليات، وفي قلبه صوت ابنه.

لم يكن يعرف بعد إن كان سيُنقّذ...

أو سينقلب على كل شيء.

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا فقط:

أن الطريق الذي عاد به إلى مضايا...

ليس هو الطريق الذي خرج منه.

"خيانة الأوامر... طاعة للضمير"

الزمان: ليل الثلاثاء، 7 حزيران 2011

المكان: منزل أحد ضباط الجيش في مضايا – اجتماع سري بين الأب وثلاثة من رفاقه العسكريين

كان البيت مظلمًا إلا من ضوء أصفر صغير في الزاوية.

جلسوا على الأرض...
أربعة ضباط، أبناء بلدة واحدة، برتب مختلفة، بوجوه متعبة.

في الوسط، فُرشت قطعة قماش باهتة، وُضعت عليها أكواب شاي لا أحد شرب منها.

كسر الصمت صوت أبو غسان، النقيب المعروف بحدّته:

"شو قالولك بالضبط؟ وضّحلي."

نظر إليهم والد سامر، ثم أنزل الورقة من جيبه، ببطء.
لم تكن ورقة رسمية.
كانت بضع كلمات شفهية تحوّلت إلى أمر لا يُناقش.

قال بهدوء:

"قالوا: في تحركات مشبوهة بمضايا.
في خلايا نايمة، سلاح مخبّأ، تنسيق مع مجموعات تابعة بالخارج.
والمطلوب... ندخل، نعتقل، ونضرب، ونقتل إذا لزم الأمر."

خيم الصمت مرة أخرى.

الملازم حسام رفع حاجبه، وقال:

"نضرب مين؟ أهلنا؟!
هاد بيتك وبيتي وبيت كل واحد هون!"

ردّ أبو يوسف، الرائد المعروف بهدوئه:

"هنن شايفين إنو مضايا بطلت منطقة. صارت هدف."

أبو سامر ظل صامتًا للحظات، ثم قال:

"بيعرفوا إنو سامر استشهد... بيعرفوا منيح.
ومع هيك، هني عم يقولولي: فوت على الحارة اللي انقتل فيها ابنك... وكمّشها."
قالها، ثم تنهد بصوت مكتوم.

أبو غسان نظر في وجهه طويلًا، ثم قال:

"لك نحنا كنا نفكّر إنو الدولة فوق الكل...
طلع الواقع ما حدا فوق القهر فوق الظلم .
وهاد الشي عم يمشي معنا لبيوتنا، لعيلتنا، لأولادنا."

ردّ حسام:

"أنا عندي أخ أصغر مني، عمره ١٦.
إذا إجاني أمر أعتقلو... بعملها؟!"
"لا والله، ما بعملها."

ساد التوتر.

ثم قال أبو سامر بصوت منخفض:

"أنا ما إجيت أطلب رأي.
أنا إجيت لأنو ما عاد فيني كمل لحالي.
حاسس حالي رح أنفجر."

وقف، ونظر في عيونهم واحدًا واحدًا:

"أنا ضابط.
بس قبل ما كون ضابط، كنت أب...
واليوم، عم يطلبوا مني أقتل أولاد غيري، متل ما قتلوا إبني."

سكت... ثم أضاف:

"إذا بدي أختار... رح أختار ضميري."

أبو يوسف تمعّن قليلًا، ثم قال:

"طيب... إذا قررنا نرفض، شو البديل؟

نقعد ونتفرج؟

ولا..."

(توقّف قليلا ً)

"ولا مننتحر قبل ما يقتلونا؟"

قال أبو سامر:

"لا... منبلّش نحنا.

سرية صغيرة... سلاح بسيط... دفاع عن الناس، مش اعتداء."

أبو غسان هزّ رأسه:

"يعني، بلّش طريق ما في رجعة منّو؟"

ردّ الأب:

"رجعة من شو؟

من موت ولادنا؟

من خيانتنا لحالنا؟

من هالعار؟"

صمت الجميع.

ثم أومأ حسام برأسه.

"أنا معك."

أبو يوسف قال:

"أنا كمان... بس لازم يكون القرار موزون، ما في رجعة بعده."

أبو سامر أجاب:

"ولا في استسلام بعده."

في تلك الليلة،

لم يولد فصيل مسلح فقط...

بل كُسرت قيود، وانكسر جدار.

لم يُسمّوا أنفسهم جيشًا بعد...

لكن كانت تلك

الخطوة الأولى في تحرير الضمير.

"لم يعد الصمت خيارًا"

الساعة تقترب من الثامنة مساءً.

كان البيت صامتًا...

لكن التلفاز كان يشتعل بالأحداث.

قنوات الثورة تعرض صورًا من حمص، معرّة النعمان، بانياس، دير الزور...

جثث على الأرض، شبّان يُسحبون من الشوارع،

وأصوات تكبير وهتافات بين قنابل الغاز.

فارس كان جالسًا على الأرض، يضم ركبتيه، عيونه مفتوحة على الشاشة كأنها تنظر لأ
ول مرة.

الأب يجلس بعيدًا، لا يدخّن، ولا يتكلم.

الأم تحضّر الشاي، لكن يدها ترتجف كلما دوّى صوت رصاص.

ليلى الصغيرة كانت ترسم بقلم تلوين على دفترها،
ثم رفعت رأسها فجأة:

"ماما... هاد ليش عميركض هيك عالتلفزيون... ؟"

فارس نظر إليها، ثم قال:
"، هربان من الرصاص."

ليلى سكتت، ثم همست:
"بس وين بروحو؟ ما في مطرح بدون صوت."

قطع الصوت التلفاز فجأة، ثم ظهرت صورة:
"الضابط حسين هرموش يعلن انشقاقه عن الجيش السوري."
الصورة لم تكن واضحة، لكن الصوت كان حادًا، قويًا.
قال هرموش:
"السلام عليكم يا حماة الديار نترحم على أرواح شهدائنا الأبرار عسكريين ومدنيين أنا

المقدم حسين هرموش من ملاك الفرقة 11، قيادة الفرقة ، أعلن انشقاقي عن الجيش العربي السوري،

وأدعو كافة الضباط والجنود للوقوف إلى جانب الشعب....."

صمت ثقيل.

الأب حدّق بالشاشة طويلا ً.

لم يتحرّك.

كأن شيئًا انفجر في داخله... دون صوت.

الأم وضعت الصينية على الطاولة، بصوت مكتوم:

"هاد أول واحد؟"

قال الأب:

"أول حدا بيقولها بصوت عالي.

بس ما رح يكون الأخير."

فارس اقترب أكثر من التلفاز.

"بابا... ليش انشق؟"

رد الأب:

"لأنو ما عاد قادر يشوف الناس عم تنقتل ويسكت."

سكت فارس، ثم قال:

"يعني... هو صار ضدكن؟ ضد الجيش؟"

رد الأب بعد تردد:

"لا... هو صار مع الحق.

بس بالدولة، لما تكون مع الحق، بتصير عدو."

ليلى وضعت القلم، وقالت:

"أنا رسمت سامر عم يطير... هيك بالسما، فوق.

هو بيشوفنا هلأ؟"

الأم غطّت وجهها، ودمعت عينيها.

الأب تنفّس ببطء، ثم وقف.

قال:

"كل بيت فقد حدا...

بس بعد اليوم، كل بيت رح يقرر إذا رح يضل ساكت."

في الخارج، كان هناك صوت مفرقعات، أو ربما إطلاق نار من بعيد.

في داخل فارس...

كانت أول بذرة لشيء اسمه وعي.

لم يفهم السياسة، ولا يعرف أسماء الضباط،

لكنه فهم شيئًا بسيطًا:

"أن سامر لم يكن وحده...

وأن الناس ، صاروا يقفون مكانه."

مساء 21 حزيران – مضايا – بيت أبو سامر

هدأت البلدة...

لكنهم في الداخل لم يهدأوا.

جلسوا على الأرض في صالة المنزل.

الهواء ثقيل، وكأن الجدران نفسها تختنق.

دخل أبو يوسف وهو يلهث.

في يده هاتف قديم، وعلى وجهه شيء يشبه الرعب.

"وصلتني معلومة مؤكدة... بكرا بالليل، في حملة أمنية على مضايا."

سكت لحظة.

"قائمة أسماء جاهزة.

بيوت رح تُداهم.

وفي أوامر بإطلاق نار مباشر لو صار أي مقاومة."

أبو غسان حدّق فيه:

"يعني... مضايا بكرا رح يصير فيها فرع؟!"

رد أبو يوسف:

"أكتر. قالوا بالحرف: بدنا نعلّمها درس متل درعا."

أبو سامر لم يتكلم مباشرة.

نظر حوله.

ثم نظر إلى صورة سامر على الحائط.

قال بصوت منخفض:

"يعني كل شي حاولنا نأجله... رح يعملوه بدوتا."

أبو غسان هز رأسه:

"ما عاد في وقت.

يا منلحق نحنا نرد...

يا منقعد ونتفرج عالمجزرة."

وقف أبو سامر.

قالها كمن يطلق رصاصة:

"جهزوا الكاميرا."

أبو سامر، يقف قرب الجدار، يثبّت خلفه علم الثورة الذي أخفاه طيلة الأسابيع الماضية في خزانة الكتب.

نور خافت في الزاوية، وكاميرا هاتف محمولة مثبتة على كرسي ، لتصوير لحظة ليست تمثيلًا، بل خروجًا من جسد الدولة.

قال أبو غسان، الضابط الميداني:

"القصة مو بس بيان.

القصة إنك توقف بوجه كل معتقد كل فكرة كل شخصية دافعت عنها طوال سنين عمرك

، وتلبس حقيقة كنت خايف منها."

رد أبو سامر بصوت مبحوح:

"أنا لبست الخوف عشرين سنة...

بس اليوم، بعد سامر، ما عاد في شي بخوّف أكتر من الصمت."

كان فارس واقفًا خلف ستارة الممر، يراقب.

أمه في الغرفة المجاورة، تمسك القرآن ولا تقرأ.

ليلى جلست على الكنبة تلعب ، ثم همست:

"بابا رح يطلع عالتلفزيون؟"

"سجّل"

قالها أبو يوسف، وبدأ التصوير.

أبو سامر تقدّم، يقف بثبات، وجهه صلب، لكن عيونه تحكي جرحًا ما زال حيًا

قال:

"أنا النقيب (فلان)...

ضابط في الجيش العربي السوري، رقم عسكري كذا،

أعلن اليوم انشقاقي الكامل عن المؤسسة العسكرية التابعة لهذا النظام الفاشي،

بعد أن تحوّل من جيش لحماية الوطن، إلى آلة لذبح شعبه."

تنفّس.

ثم تابع، ويده ترتجف قليلًا:

"ابني سامر قُتل... ، قتل برصاص شبيحة هذا النظام الفاسد.

لا لذنب اقترفه سوى رغبة في الدفاع عن حرية المعتقلين

كنت أظن أن ولائي لمؤسستي يحفظ شرفي.

لكن علمت متأخرًا... أن الشرف هو أن تقول (لا) حين تكون (نعم) خيانة."

تقدّم أبو غسان:

"نحن مجموعة من الضباط،

نعلن تشكيل أول سرية من الضباط والعناصر المنشقين في مضايا،

تحت اسم (سرية شهداء الحرية)."

ثم... جاء الفعل الأهم.

أبو سامر مدّ يده نحو كتفه،

وأمام الكاميرا، نزع رتبته العسكرية، ورماها أرضًا.

قال بصوت واضح:

"القسَم الذي أقسمته ذات يوم، كان على علم فوقه دم،

أما القسَم اليوم... فهو في وجه من قتل ابني،

وفي وجه كل قاتل."

أغلق الكاميرا.

صمت.

لحظة أقوى من كل الرتب.

ثم همس أحدهم:

"من هاللحظة... حياتنا ما عادت إلنا."

رد أبو سامر:

"بس الكرامة صارت معنا."

دخل فارس الغرفة.

اقترب من الرتبة الملقاة على الأرض.

نظر لأبيه، وسأله:

"بابا... هاد متل وقت سامر رفع إيده بالمظاهرة؟"

رد أبوه، وهو يضمّه:

"إيه... بس هاي المرة، ما حدا رح ينزل إيدو."

وفي الغرفة المجاورة...

قالت ليلى، وهي تمسك دميتها:

"بابا صار بصف سامر... بس ليش الكل عم يبكي؟"

تلك الليلة،

لم تكن فقط لحظة انشقاق...

كانت لحظة تحوّل،

لأبٍ فقد ابنه... فوجد نفسه.

"الهتاف في وجه الموت"

يوم الأحد 26 حزيران 2011:

مظاهرة من الجامع الشمالي في بلدة مضايا، وما لبثت أعداد المتظاهرين أن ازدادت..

وقد انضمّ عدد من شباب الزبداني الذين تحدّوا التشديد الأمني ليشاركوا أهالي مضايا في المظاهرة إضافة إلى عدد من شباب بقين ليتجاوز عدد المتظاهرين ال-600 متظاهر.. وجدير بالذكر أنه أثناء المظاهرة أعلن أحد الشباب وجود بعض من شباب اللا ذقية في التظاهرة حيث حيّاهم أهالي المنطقة..

ورفع المتظاهرون لافتات برفض الحوار المزعوم وأته لاحوار مع القتلة، وكانت هتافاتهم تنادي بإسقاط النظام ونصرة جميع المدن المحاصرة ومطالبة النّظام بتسليم جثمان الشهيد معاوية أحمد ناصيف الذي استّشهد على يد قوات الأمن الغادرة عند مروره قرب أحد الحواجز المنتشرة حول مضايا..

وقد عمد النظام إلى تقطيع أوصال المنطقة من خلال تمركز عدد من الحواجز على المداخل الرئيسية والفرعية في الزبداني وحول مضايا, كما حصلت حوادث اعتقال متفرّقة في الزبداني منذ يوم الجمعة: جمعة سقوط الشرعية

الصوت الذي خرج من المسجد الشمالي كان صافيًا، ولكن كان يحمل أيضًا وقعًا من الخوف.

فارس كان واقفًا بجانب الباب، يحاول أن يرى ما يحدث.

أصوات الهتاف بدأت بالتصاعد، "الشعب يريد إسقاط النظام!"، ثم تبعها "حرية، حرية!".

لكن، خلف الكلمات، كان هناك قلق شديد.

القمع كان حاضرًا في كل زاوية.

فارس كان يشعر بشيء غريب، قلبه يخفق،

ما الذي كان سيحدث لو تراجعوا؟ لو سكتوا؟

لكنهم كانوا يموتون في صمت طوال السنين، وكانت هذه فرصتهم.

ثم، فجأة، توقفت الحشود عند حاجز أمني في طرف البلدة.

الجنود، في زيهم المموّه، نزلوا بسرعة.

أحد الجنود وجه بندقيته نحو الأرض، لكن أصابع الشباب كانت ترفع الهواتف لتوثيق

المظاهرة.

سمع فارس أحد الجنود يصرخ:

"فكوا الصفوف... وإلا رح نفتح النار."

لكن الناس لم يتحركوا.
العشرات، بل المئات، من أيديهم رُفعت بأمل كبير.
ثم، في لحظة مفاجئة، بدأ الجنود يطلقون النار.

في ذلك الحين، هتف فارس بصوتٍ عالٍ رغم أنه كان يراقب من بعيد:
"ما رح نخاف... ما رح نسكت!"
كان يريد أن يرى شيئًا من التغيير، يريد أن يشعر أن الاحتجاج له قيمة.

فارس وقف في مكانه، ثم شعر بشيء ثقيل في قلبه.
دموعه اختلطت بالتراب، لكن هناك شيء تغيّر في داخل نفسه.
لم يعد طفلًا ينظر من بعيد، بل أصبح جزءًا من اللحظة.

"ما حدا رح يوقفنا"، قال فارس في نفسه.
ثم شعر بيدٍ على كتفه،
كانت يد أبيه، الذي مرّ بجانبه بهدوء، وهو يراقب كل شيء بعينيه، نظرة مزيج من الحزن والقرار.

الوحشية كانت واضحة.

وكان من الواضح أن النظام سيواصل سحق كل من يعترض،
لكن فارس شعر أن هذه بداية النهاية.
الناس في مضايا لن يتراجعوا الآن.
في قلبه، بدأ يشعر بحجم الثورة التي نبتت، والتي لن تنتهي إلا عندما تسقط الأنظمة.

"ممنوع أن يُدفن"

26 حزيران 2011 مضايا – محيط الحاجز الغربي
كنا نعرف أن معاوية مات...
لكن موته لم يكن النهاية، بل بداية لشيء توقعناه جميعا
خرجنا من بيوتنا بعد المغرب، رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا...
كأن القرية كلها قررت تقف على باب الحاجز وتقول "بكفي".

الطريق إلى الحاجز كان ممتلئًا بالحزن...
لكن الحزن كان مخلوطاً بغليان.

أنا كنت مع أبي الذي تلثم تقريباً، وخلفنا الناس تبكي بصمت،
وأصوات تتردّد:
"وين الجثمان؟! ليش ما سلموه؟!"

كانت أم الشهيد تمشي بجانبنا، جسمها يرتجف، وتقول:
"بس شوفو ابني... بس شوفوه!"

وقفنا عند الحاجز.
ثلاثة عناصر بلباس عسكري، ومعهم رابع مدني، ممسك بورقة يسجّل الملاحظات.

اقترب رجلٌ من الضابط، رفع يده بانكسار:

"سيدي، بس بدنا ندفنه. هي كرامة ميت، مو مظاهرة."

الضابط لم يرفع عينه، قال ببرود:

"ما في تعليمات بتسليم الجثة. روحوا عالبيت."

رجل صرخ من الخلف:

"شو بدكن تعملوا فيه؟! تحاسبوه بعد الموت؟!"

هتف الناس:

"يا شهيد ارتاح ارتاح، نحن منكمل كفاح!"

"بالروح بالدم نفديك يا معاوية!"

وجوه العناصر تغيّرت.

رفع واحد منهم البندقية وقال بصوت مهدّد:

"فكّوا التجمّع فورًا، أو رح نطلق النار!"

أبي أمسك بذراعي.

صوته كان ثابتًا:

"فارس، لا ترد عليهم، خليك ورا."

بس أنا ما قدرت أتحمّل.

اقتربت شبرين، وصرخت:

"هاد ابن مضايا! بدكن تمنعونا ندفنه كمان؟!"

"أنتو حتى الميت بتخافوا منه؟!"

ضربني الخوف بعد الكلمة الأخيرة.

لكن لم أستطع إمساك نفسي.

الناس تراجعت ببطء، ليس خوفًا... بل من الصدمة.

وبينهم، أم الشهيد جلست على الأرض.

لم تعد تبكي، لكنها كانت تمسك طرحتها، وتضغطها بيدها.

قالت بهمس:

"كان يركض ليشتري خبز... بس ما رجع."

تراجعنا... وكل واحد فينا بداخله نار تشتعل

وأنا؟

رجعت وأنا أسمع جملة واحدة ترن براسي:

"ما في تعليمات بتسليم الجثة."

نظام يمنع دفن شاب، مالذي سيفعله بالأحياء؟

وقتها، فهمت أن الثورة لم تكن خيارا أبدا...

كانت الخيار الوحيد المتبقي لنا.

"يُشيّع رغمًا عنهم"

29 حزيران2011

مضايا – من الجامع الشمالي حتى المقبرة

لم تكن الساعة قد تجاوزت الظهيرة، حين خرجنا من الجامع الشمالي.

أصوات الهتاف كانت خافتة في البداية، ثم تصاعدت كأنها تدحرجت من حناجر خنقتها الأيام:

"الشعب يريد إسقاط النظام!"

"لا حوار مع القتلة!"

كانوا عشرات، ثم صاروا مئات.

عدد من طلاب البكالوريا، خرجوا بلا تنسيق... بلا رايات... لكن بوجع واضح.

في الخامسة والنصف تمامًا، وصل الخبر:

"سلموا جثمان معاوية!"

ركضت مع الشباب إلى مدخل الحارة، حيث توقفت سيارة إسعاف بيضاء، يقف أمامها ضابطان وعنصران.

الناس تجمعت. أم الشهيد كانت تبكي بصمت، عيناها حمراوان كأنهما لم تغمضا منذ أيام.

اقترب أبي قليلا، قال بصوت خافت في أذني:

"عم يضغطوا عليهم... بدّن التشييع يصير بصمت."

صرخ أحد عناصر الأمن من جانب السيارة:

"أي تجمّع كبير... رح يُقمع بالقوة."

رد شاب من بقين، واقف قرب العم أبو معاوية:

"هاد الشهيد ابن البلد... وإذا ما شيّعناه متل ما بيستاهل، منكون نحنا اللي متنا!"

تحرّك النعش بين الأيدي.

بدأ التكبير يهزّ الأزقة:

"الله أكبر! الله أكبر!"

ما لبثت الهتافات أن تحوّلت إلى شعارات:

"يا شهيد ارتاح ارتاح، رح نكمل الكفاح!"

بدأت الأعداد تتضخم.

جاء شباب من الزبداني، وآخرون من الروضة وكفير الزيت.

حتى أنني رأيت شابًا قال بصوت مرتفع:

"أنا من اللاذقية... ودم هالشاب دمي!"

كنا آلافًا.

أنا أمشي بين أقدام رجال يعرفون أن أي طلقة قد تمزّقنا، ومع ذلك كانوا يرفعون رؤوسهم.

مشيت قرب النعش، وسمعت أنين أم الشهيد، وهي تهمس:

"قلتلك لا تمرّ من عند الحاجز... قلتلك لا تتأخر..."

عند المقبرة، وقف الأمن في الخلف.

لم يتدخلوا.

الناس كانت أكثر من قدرتهم.

الهتاف صار جنونًا:

"سوريا بدها حرية!"

"يلعن روحك يا حافظ!

بعد الدفن، ما عادت المظاهرة جنازة.

صارت ثورة.

عدنا إلى الجامع الشمالي عند المغرب.

الناس تجمعت من جديد.

المكبر صوته يرتجف:

"يسقط النظام! يسقط الإعلام الكاذب!"

ثم... مفاجأة.

نساء البلدة، واحدة تلو الأخرى، خرجن من الزقاق.

كنّ يحملن صور الشهداء، ويرددن بصوت لا يمكن أن يُوصف إلا بأنه:

صوت الأمهات حين يئسن من الصمت.

ليلى أمسكت يدي.

"فارس... هاد صار تشييع كبير مو؟"

قلت لها:

"لا... هاد صار بلد كامل عم تصرخ."

في تلك الليلة... لم يُدفن معاوية فقط.

في تلك الليلة...

وُلِدت مضايا من جديد.

1 تموز 2011 – الانتقام الصامت

لم يكن الصباح عاديًا، ولا هواء مضايا يشبه ما مضى.

البلدة صارت أخفّ من أن تُمسك، وأثقل من أن تُحتمل.

كان الجميع يتكلمون همسًا، كأن الصوت نفسه صار خطرًا.

منذ بضعة أيام فقط، ظهر والدي في تسجيل مصوّر مع رفاقه، يعلنون فيه انشقاقهم عن "جيش الوطن" كما كانوا يسمّونه، ويرفعون علمًا آخر... يشبه الحياة.

في الليالي التي تلت التسجيل، لم نعد نعرف النوم.

أبي لم يبدّل ملابسه. بقي ببزّته الخضراء، جالسًا عند النافذة، يراقب الطريق كمن يودّعها.

وفي هذا الصباح، لم يُسمع صوت أذان الفجر.
المئذنة كانت صامتة... أو خائفة.

قبيل السابعة، دوّى أول صوت:

"طوّقوا المنطقة! الكل عالأرض!"

لم يكن مجرد حاجز... كانت حملة.

دخلوا البلدة من ثلاث محاور.

الشارع العام. المدخل الغربي. والفرع الزراعي.

كانوا كثيرين... أكثر من المعتاد.

بعضهم بثياب عسكرية. بعضهم بلباس مدني. وبعضهم لا يلبس إلا الكراهية.

كانوا يعرفون إلى أين يذهبون.
لم يطرقوا الأبواب. كانوا يخلعونها.

سمعنا أصواتهم يصرخون في حارتنا:
"بيت أبو سامر! افتح بسرعة!"

لكن لم يكن في البيت أحد... أبي خرج قبل الفجر، ولم يعد.

أنا كنت مع أمي وأختي في منزل خالتي، على الطرف الجنوبي .

قال أبي قبل أن يغادر:

— "إذا ما رجعت... لا تفتحوا لحدا."

رأيتهم من خلف ستارة النافذة.

أربعة رجال دخلوا بيتنا.

سمعت صوت الطاولة تُقلب. الدولاب يُفتح. أحدهم يكسر شيئًا زجاجيًا.

ثم... خرجوا.

لكنهم لم يغادروا.

نصبوا نقطة أمنية قرب الحارة. صاروا يفتّشون الداخل والخارج.

قالت خالتي:

— "ما بدّن سامر... ولا أبو سامر... بدّن يربّونا كلنا."

في ظهيرة ذاك اليوم، كنت أجلس في زاوية الغرفة، أضمّ ركبتي إلى صدري، أراقب الظل على الحائط.

ليلى كانت نائمة، وأمي تقرأ القرآن بصوت خافت.

همست:

– "ماما... شو رح يصير فينا؟"

لم تجبني فورًا.

ثم قالت:

– "ما بعرف، بس نحنا صرنا بصف الحق... وكل اللي بصف مع الحق، بيدفعوا الثمن."

وفي مساء اليوم ذاته، وصلتنا الأخبار:

اعتُقل عمّي من على حاجز "الكازية".

داهموا بيت أبو غسان، ولم يجدوه.

وعُلّق بيان على باب الجامع:

"كل من يثبت عليه التواصل مع الإرهابيين أو إيواؤهم، يُحاسب حسب قانون مكافحة الإرهاب."

ضحكت ليلى، وقالت:

– "يعني نحنا إرهابيين؟!"

فبكت أمّي.

في الليل، كنا نطفئ الأنوار، ونجلس في الداخل بلا صوت.

كنت أشعر أن البيت صار قشرة رقيقة من الخشب، تحيط بنا وسط بحر من الذئاب.

وفي زاوية الغرفة، كان الهاتف النقال لأبي يهتزّ دون توقف.

رسائل قصيرة.

واحدة منها فقط استطعت أن أقرأها، قبل أن تسحب أمي الهاتف:

"وصل البلاغ، راح يداهمو بيت خالتك كمان. انتبهوا."

تلك الليلة، لم يكن القصف قد بدأ بعد.

لكن القلوب... كانت تُقصف كل دقيقة.

والبيت... لم يعد بيتًا.

صار خندقًا من الصبر، محفورًا في خوف طفل اسمه فارس.

2 تموز 2011 – مساء تحت الخطر

كانت الشمس قد اختفت وراء الجبل، لكنها خلفت وراءها حرارة ثقيلة،

في بيت خالتي، جلسنا نأكل بصمت.

أمي تفتّت الخبز اليابس في طبق العدس، وليلى تعبث بقطعة بندورة صغيرة، وفمي لم يكن يميز الطعم.

الخوف يأكلنا قبل أن نأكل شيئًا.

كان أبي قد غادر فجر البارحة، ولم نسمع عنه منذ ذلك الحين.

قالت أمي حينها:

– "إذا ما رجعتوا سمعتوا صوته... ادعوله."

الساعة تقترب من الثامنة، والمولد الكهربائي في الحارة انطفأ فجأة.

في الخارج، صمتٌ غريب. ليس صمتَ أمان... بل صمت الكمائن.

قالت خالتي وهي تطفئ الفانوس:

— "صاروا يمشوا بالليل أكتر... بيفتشوا البيوت بعد العشا. لا حدا يحكي، ولا يفتح الشبابيك."

جلستُ قرب النافذة، لا أرى شيئًا، لكني أسمع كل شيء.

خطوات.

همسات.

ثم... صوت لا يُخطئه القلب:

"البيت ! طابق ثاني! طوّقوا !"

تجمّد الدم في عروقي.

صرخت خالتي:

— "قومي! قومي يا أم فارس!"

قفزت أمي ورفعت ليلى بذراعين مرتجفتين، همست لي:

— "فارس... عالسّطح، بسرعة!"

ركضنا إلى المطبخ، ففتح زوج خالتي الباب الخشبي المؤدي للدرج الخلفي.

في الأسفل... طرقات عنيفة، وضرب على الباب.

صوت رجل يصيح:

لك اكسروا الباب بسرعة خلصونا

ركضت خلف أمي، يداي ترتجفان، والعرق يلتصق بظهري.

صعدنا إلى السطح.

في الزاوية... جدار منخفض يفصلنا عن بيت الجيران.

قالت خالتي:

— "بيت أم عبدو فاضي، روحو! الحيط الي ع جنب مهدوم من زمان..."

رفعت أمي ليلى، ثم همست لي:

— "انزل... بسرعة، وأنا بعدك."

قلبتُ جسدي الصغير فوق الجدار، ركبتاي تؤلماني، لكن خوفي كان أسرع من الألم.

دخلنا سطح الجيران، ثم الدرج، ثم غرفة صغيرة مهجورة.

جلسنا هناك... نكتم أنفاسنا.

من البيت الذي تركناه، سمعنا الصراخ:

"وينن؟! وين بيت أبو سامر ؟!"

"في حدا خبّاهم! احكوا يا كلاب!"

صوت خالتي: "ما بعرف شي... والله ما بعرف!"

ثم صوت شيء يُكسر... زجاج؟ أو مرآة؟

بقينا صامتين.

ليلى كانت تبكي دون صوت، تحشو وجهها في صدر أمي.

وأنا... كنت أضع يدي على فمي، كي لا يسمعوا صوت دقات قلبي.

كأن قلبي صار طبلة إعلان، يناديهم إلينا.

بعد عشرين دقيقة، سمعنا صوت أقدام تغادر.

واحد يضحك ويقول:
"ولا يهمك، رح نلقطهم مثل الفيران، واحد واحد."

حين خفّ الصوت، التفتت أمي إليّ.

كان وجهها مبلولًا، لكنها لم تبكِ.

قالت بصوت غريب... لا هو خائف، ولا هو مكسور:

— "البلد ما عاد فيها حيط يستر. كل بيت صار مصيدة."

نظرتُ إليها، وشعرت أني لم أعد طفلًا.

كنت أحمل ليلى بيدي، لكن الذي كان يحترق... هو قلبي.

في تلك الليلة، أدركت شيئًا جديدًا:

أن النجاة ليست أن لا تموت.
بل أن تعرف... أين تموت، وكيف.
وأن لا تموت مرتجفًا خلف باب، بل واقفًا، تنظر في عيونهم وتقول:
"ولسه بدنا حرية."

5تموز 2011 – لا عودة إلى الخلف

منذ محاولة اقتحام بيت خالتي، لم نعد نغادر الدار إلا قليلًا.

أصبحت الخطوة خارج العتبة، مخاطرة.

لكنّ مضايا كانت تغلي.

الشوارع الضيقة صارت تمتلئ في الليل بخطوات خفية... وجدران الحارات تكتسي كلماتٍ لم نعتدها من قبل:

"يسقط النظام."

"الحرية للمعتقلين."

"دم الشهيد ما بيروح."

كنت أخرج مع عمر ابن خالتي بعد المغرب متسللا، نتظاهر أننا ذاهبون لشراء الخبز.

لكن الحقيقة أننا كنا نبحث عن الشعارات الجديدة، كمن يجمع صفحات كتاب لا يزال يُكتب.

في يوم الثلاثاء، 5 تموز، خرجت أوّل مظاهرة كبيرة في مضايا.

لم تكن تشبه السابقة، التي خرجنا فيها صغارًا نحمل صورًا للرئيس ونهتف مرغمين.

هذه المظاهرة كانت مختلفة.

لم يوزعوا علينا أعلامًا... بل حملناها بأنفسنا.

لم يُطلب منا أن نهتف... بل صرخنا كما لو أنّنا نخرق جدارًا داخل صدورنا.

"يا بشار ما منحبك... ارحل عنا إنت وحزبك!"

"سوريا بدها حرية... مو قصف وهمجية !"

" الي ما بشارك ... مافي ناموس "
كنت أسير في آخر الصف، لا أجرؤ على رفع صوتي مثل الكبار.

لكنني شعرت بشيء يشبه الولادة.

أول مرة أشعر أن الشارع صار بيتًا لنا، لا للجنود.

أننا لم نعد وحدنا.

أن الغضب له صوت... والصوت صار سلاحًا.

في الليل، انتشرت الصور على فيسبوك.

قال عمر وهو يضحك:
— "شفت حالي بالتصوير؟ ورا الشب يلي معه ميغافون، أنا واقف... ماسك علم!"

لكن الضحك لم يدم طويلًا.
في 7 تموز، بدأ الردّ.

الساعة كانت التاسعة صباحًا، والشارع لا يزال نائمًا.

سيارات مدنية دخلت فجأة... مليئة برجال مسلحين.

لم يلبسوا زيًا رسميًا.

لكن وجوههم كانت تحمل نفس القسوة.

وقفوا عند المدرسة الابتدائية، ثم توزّعوا على البيوت.

بدأوا يطرقون الأبواب بأعقاب البنادق.

وفي ظرف ساعة... اعتُقل ما لا يقل عن خمسين شابًا من مضايا.

أحدهم كان جارنا "فادي"، طالب جامعي، خرج من بيته حافي القدمين.
قال لهم:
– "بس خلوني آخذ جاكيتي، معي ربو."
ردّ عليه أحدهم:

"بتتنفس أحسن بلا ربو بطيخ."

في اليوم نفسه، عاد أبو أحمد من دمشق، محمولًا على بطانية.

كان قد اختفى قبل ثلاثة أيام.

قال ابنه إنه دخل "فرع فلسطين"، وخرج مكسراً...

الناس صارت تتهامس:

– "ابن أبو وائل؟ أخدوه لأنه عمل لايك لبوست!"

– "والله شفت أبو علاء عم يبكي قدام الفرع، بس ما رضيو يقولوله ابنه وين!"

– "صار في أوامر بلمّ كل من شارك بالمظاهرات، حتى يلي صوّر أو كتب شي!"

أبي كان يراقب الأخبار من بعيد.

ما زال متنقلًا بين البساتين، لا يدخل البيت إلا فجرًا.

قال لي ذات مرة، بصوته الغليظ الذي أصبح يشبه الحطب اليابس:

– "بدن يطفوا الحناجر... لأنهم بيعرفوا إنو الصوت أخطر من الرصاصة."

ثم أضاف:

– "بس إذا سكتنا... منكون نحنا اللي طخينا حالنا."

في أحد أيام الجمعة، كنا في الساحة.

الناس تصرخ.

الهواء مليء بالغضب... والغبار.

ثم... سمعنا الرصاص.

طلقة أولى. ثم ثانية. ثم عشرات.

صرخ أحدهم:

"قنّاصة! انبطحوا!"

ركضت خلف جدار حجري.

تعثّرت. سقطت. يدي تأذت.

نظرت خلفي، فوجدت شابًا ملقى على الأرض، رأسه غارق في الدم.
لا أعرفه... لكن وجهه يشبه كل من حلم يومًا أن يعيش حرًا.

لم أعد أميّز من الذي يطلق الرصاص.
من الذي يُعتقل.
من الذي يعود... ومن الذي لا يعود.

لكنّي بدأت أفهم شيئًا آخر:

أننا دخلنا زمنًا لا يشبه ما قبله.
في ذلك الأسبوع فقط، اُعتقل أكثر من مئة شاب.

معظمهم لم يعد
منهم من لا تزال صورته معلقة على عمود الكهرباء.
ومنهم من بقي في الذاكرة... مجرّد صوت هتف:
"حرية... وبس."

10 كانون الثاني 2012 – حين تسلقوا الجبل

كانت مضايا شبه ميتة.
ليست ميتةً بالصوت، بل بالصمت.

لا سيارات، لا عرس، لا حتى بكاء مسموع.

كل شيء صار يُقال بالهمس أو لا يُقال.

المقاهي مغلقة. المدارس متوقفة.

والناس صاروا يشيرون أكثر مما يتكلمون.

منذ أيلول الماضي، بدأت الأجساد تتساقط كأوراق الخريف.

كل جمعة كانت تتحول إلى مأتم.

الرصاص لم يعد في السماء فقط... صار في الظهر، في القلب، في الحيطان، في حقيبة الطالب، في باب الجامع.

ذات صباح بارد، عاد عمر إلى البيت يركض.

وجهه أصفر.

عيناه دامعتان.

قلت له:

— "شو صار؟"

قال وهو يلهث:

— "مازن... أخدوه!"

— "مين؟"

— "الحاجز... عند فرن أبو زيد. قالوا اسمه على اللائحة."

كان مازن واحدًا منّا.

لم يهتف كثيرًا. لم يحمل سلاحًا.

لكنهم قالوا: "كان موجود يوم المظاهرة... شفناه بالفيديو."

بعد ثلاثة أيام، وصلت الأخبار:

مازن مات... تحت التعذيب.

أمه، التي كانت تبيعنا اللبن، جلست على عتبة بيتها ولم تصرخ.

بل قالت بصمت مؤلم:

"شو هالذنب الكبير الي ارتكبو ابني حتى يستحق القتل بهالطريقة والله ما كان مجرم، بس كان صوت الحق، إنو الحرية أغلى من أي شيء....."

في الأسبوع التالي، اختفى عمار.

لم يُعتقل.

بل غاب.

ثم وصلتنا ورقة صغيرة، عبر ولد لا يتجاوز التاسعة.

كتب عليها:

"أنا مع الشباب... عالجبل. ما عاد نقدر نعيش تحت."

كانوا خمسة.

هربوا في الليل... عبر بساتين التفاح، إلى سفح الجبل، خلف الخط العسكري.

واحد منهم ابن أستاذ عربي.

والثاني من أصحاب البقالة.

والثالث عازف عود.

لكن في يد كل واحد منهم... صار الآن بندقية.

بدأ التسلّح عشوائيًا.

لا تنظيم. لا رتبة. لا غرفة عمليات.

سلاح من السوق السوداء.

رصاص بالقطارة.

وخوف لا ينتهي.

أسموهم في البداية: "شباب الجبل."

ثم صاروا يقولون: "الحرّ."

ثم صارت السلطة تقول: "مسلّحين... إرهابيين... مندسين."

في 10 كانون الثاني، سُمع أول اشتباك حقيقي في مضايا.

استيقظنا في الليل على صوت طلقات متقطعة.

نوافذ تهتزّ.

القطط تهرب.

والناس يطفئون الشموع قبل أن يطفئ الرصاصُ أرواحَهم.

قال أبي، وهو يضع كوفيّته على عنقه ويغادر:

— "بلّشت... الجبل ما عاد يسكت، والحرب رح تنزل علينا."

أراد أن يلحق ببعض رفاقه. لم يكن بعدُ مع فصيل منظم، لكنه كان يعرف أن النظام لن يسامح من خرج عن صفه.

في اليوم التالي، انتشر فيديو على الإنترنت:

خمسة شباب، وجوههم مغطاة، يقفون في بستان زيتون، وخلفهم علم الثورة.

قال أحدهم، بصوت يرتجف بين الخوف والإيمان:

"نحن شباب مضايا... خرجنا لحماية أهلنا، بعد ما سقط القانون... وسقطت معه كل معاني الإنسانية والكرامة في ظل حكم هذا النظام المجرم وبعد ما صار الحامي هو القاتل.

لا نتبع لأحد. و لا نمثل أحد.

وعليه فأننا نحن شباب مضايا الأحرار نقسم بالله العظيم ... ألا نسمح بعد اليوم... أن يُضرب طفل أمام أمه، ولا يقتل أو يعتقل رجل أمام أولاده.

نقسم أن نحمي أهلنا ... وأرضنا .. وعرضنا

من جيش هذا الطاغية المجرم

ألا نعود إلى بيوتنا حتى تعود الكرامة إلينا.

وإن مُتنا... فالموت بعزّ الجبل، أهون من الحياة بسلاسل المذلة."

الله معنا... والحق سلاحنا... والساحات شهود."

أمي سمعت الفيديو، ثم أغلقت الهاتف.

قالت:

— "كنت قول سامر تسرّع... بس الظاهر إنو كل شي صار أبطأ من اللازم."

أما أنا، فارس، ابن الثالثة عشرة،

فجلست على عتبة بيتنا، أسمع صوت الرصاص من الجبل...

وأشعر أن هناك شيئًا ما يتغيّر داخلي.

شيء لا أفهمه تمامًا.

لكنني أعرف... أنه لن يختفي بعد اليوم.

في ذلك اليوم، حين صعدوا إلى الجبل...

كانوا يحاولون إنقاذنا.

لكننا نحن، من بقينا في البلدة...

كنا نتهيّأ للجحيم القادم.

حزيران – تموز 2012: الانهيار البطيء

كانت مضايا لا تزال تقاتل تحت السطح.

ليست كلّ المعارك كانت تُسمع،

وليس كلّ الانتصارات تُعلن،

لكن تحت الأرض، وبين أشجار التفاح والتين...

كان شيء يتغيّر.

في كل أسبوع، كان شاب جديد ينشق.

مرة من حاجز البريد.

مرة من فرع الجوية.

ومرة من داخل الوحدة العسكرية ذاتها.

أسماء نعرفها.

رجال كانوا يلبسون الزي العسكري بالأمس...

واليوم يقفون على أطراف الجبل، يحملون السلاح، وعيونهم إلى بيوتهم المحاصرة.

في منتصف حزيران، وقع أول كمين حقيقي.

استهدفت مجموعة من شباب "الجبل" رتلًا صغيرًا كان في طريقه إلى الزبداني.

ثلاث عربات عسكرية.

انفجار مفاجئ.

ثم اشتباك.

ثم هروب.

لكن الحصيلة كانت موجعة للنظام:

قتل ضابط برتبة نقيب، وأسر عنصران.

بعدها بأيام، انسحب النظام من أحد الأبنية الاستراتيجية في أطراف مضايا.

المبنى الذي كان حاجزًا دائمًا لثلاث سنوات...

صار فارغًا.

قال أبي في أحد الليالي:

— "في شي عم يتغيّر. هنن خسروا هل كم نقطة، وعم يحاولوا يردّوا بأي طريقة."

ثم أضاف:

— "بس ما عاد فيهم يقاتلوا مثل أول... الجيش عم يتآكل من جوّا."

مع تزايد هذه الضربات، وارتفاع عدد المنشقين، بدأ النظام يرتبك.

خسارة في العتاد.

أسلحة منهوبة.

سيارات مصفحة محروقة.

ونقاط أمنية تُترك خلفها فجأة.

لكن هذا لم يُفرحنا كثيرًا.

كنّا نعرف أن النظام لا يترك الهزيمة تمرّ بصمت.

وأنه حين يبدأ بالخسارة... يبدأ بالانتقام.

ولم نكن نعلم أن انتقامه... لن يكون من المسلحين.

بل منّا...

من الأطفال...

من النساء...

من البيوت التي ما زالت تحمل صور أبنائها المختفين.

وهكذا...

حين دوّت أول راجمة صواريخ في سماء مضايا، في مساء 25 آب...

كنّا نعرف:

أنهم خسروا هناك...

لكنهم قرّروا أن يُنهوا ما بقي من الحياة... هنا.

25آب 2012 – من قال إنّ السماء لا تقتل؟

كانت الشمس لا تزال معلقة في طرف السماء، عندما سمعنا أول صفير.

لم يكن صوت طائرة.

ولا طلقًا نعرفه.

كان شيئًا آخر... ثقيلًا... كأن الهواء نفسه يُخنق.

ثم...

انفجار.

أهتزّ البيت.

تشقّق الزجاج.

تساقط الغبار من سقف الغرفة.

صرخت أمي:

— "للداخل! بسرعة!"

ركضنا نحو الممر الحجري، المكان الأشد ضيقًا والأكثر ظلمة... والأكثر أمانًا.

لكن الغرفة لم تكن تقي من الصوت.
ولم تكن الجدران كافية لكبح الرعب الذي صبّه ذلك الصفير في صدورنا.

كان أول قصف بـ راجمات الصواريخ.

بعد نصف ساعة، خرجنا.

الهواء ملبّد بالدخان.

الناس تخرج من البيوت كأنها تنبعث من تحت الأرض.

في الزاوية، كانت امرأة تصرخ:

— "ابني! حسين! كان رايح يجيب المي!"

ركضتُ نحو الساحة.
كان كل شيء مغطّى بالتراب.
الدكاكين مدمّرة.
والرائحة... رائحة حديد محروق... ودم.

ثم رأيتُه.

"حسين".

صديقي.

كان نصف جسده تحت الردم.
ويده ممدودة إلى قارورة ماء بلاستيكية، كأنّه ما زال يحاول أن يحملها إلى البيت.

لم أصرخ.

لم أبكِ.

شعرت فقط أن قلبي تغيّر.

كأنّ شيئًا بداخلي انكسر، ولم يُرد أن يُصلح نفسه.

في الليل، لم نستطع النوم.

الناس تجمّعت عند الجامع، دون أن يقرع أحد الأذان.

كان الإمام يبكي وهو يقول:

– "الحسين الأول مات في كربلاء، والثاني في مضايا."

دخل أبي إلى البيت في الرابعة فجرًا.

كان مغبرّ الوجه، ويده مجروحة.

قال وهو يضع البندقية جانبًا:
– "ما رح يتركونا. اليوم بداريا... مبارح بكفربطنا... وبعد بُكرا علينا كلنا."

سألته أمي، صوتها مخنوق:

– "داريا؟ شو صار فيها؟"

أشاح بوجهه، ثم قال:

– "مجزرة... راحوا على البيوت بيت بيت... قتلوا الناس عالأرض.

شباب، نساء، أطفال... في 400 جثة انعدّوا.
عم يحكوا عن مذبحة متل تل الزعتر... بس بأسوأ."

سمعتُ اسمه يتردّد في رأسي:
"حسين".

كنتُ ألعب معه "الغميضة"،
وأضحك حين يتعثّر بالحجارة.

كان يخاف من القطط... ويحب البوظة بالفستق.

الآن... هو تحت التراب،
لا يعرف أن داريا أُبيدت،
ولا أن قارورة الماء التي خرج لأجلها... بقيت ممتلئة، لكنها بلا فائدة.

في الصباح، كتب أحدهم على جدار المدرسة:

"داريا تحترق... ومضايا تنزف... ونحن ننتظر دورنا."

ذلك اليوم، لم أعد طفلًا.

بل صرت شاهدًا...
وحاملًا لحكاية صارت أثقل من سنوات عمري.

29 آب 2012 – الجحيم لا يأتي دفعة واحدة

في مضايا، لا يبدأ النهار بالشمس.
بل بصفيرٍ، أو صرخةٍ، أو طلقٍ مجهول المصدر.

كان ذلك اليوم الأربعاء.

الهواء خانق، والغبار معلق في السماء كأنه لا يريد أن يهبط.

منذ عدة أيام، لم نذق طعم النوم الحقيقي.

بعد قصف يوم 25، صارت الناس تنام بالملابس، وتُبقي الأبواب مفتوحة.

تحسّبًا للفرار.

أو للموت السريع.

في صباح 29 آب، خرج صوتٌ جديد من الجبل.

ليس صفير راجمة.

ولا هدير طائرة.

بل دويّ اشتباك... استمرّ دقائق، ثم عاد في موجة ثانية.

ركض بعض الشباب نحو أطراف البلدة.

وقال أبو حسين بصوت غاضب:

— "رجالنا هجموا عالحاجز الغربي... شالوهن!"

ذهبتُ إلى الزاوية المعتادة، خلف الجدار الحجري، أنظر من ثقب صغير على الطريق العام.

رأيت سيارات بيك أب تعود من جهة البساتين.

أحدها يحمل ثلاثة مقاتلين... اثنان جرحى، والثالث يلوّح بالبندقية:

– "جبناهن! جبناهن يا شباب!"

في الخلف... دخان يتصاعد من جهة الحاجز.
ثم صوت انفجار جديد...
ثم الرصاص.

هرع الناس إلى البيوت.

لكن النظام لم ينسحب بهدوء.

في الثانية ظهرًا، جاءت الرّدود.
أول صاروخ سقط قرب فرن أبو ياسر.

الفرن كان مغلقًا، لكن الناس كانت تمرّ بقربه...
سيدة، وولد، ورجل على دراجة.

اختفوا.

لم نجد منهم شيئًا سوى بقع دم، وكيس خبز تناثر كالرماد.

ثم انهالت القذائف.

الراجمات من جهة حاجز "الجسر".

قذائف هاون من جهة تلفريك بلودان.

والأنكى...
طائرة مروحية ظهرت في السماء، لأول مرة.

قال أبي، وهو يركض إلى الداخل:

– "هاالمجنون عبيستعمل سلاح الجو ضد الشعب ؟!!!
خسر ع الأرض صار بدو يضرب المدنيين العزل
لأي درجة من الطغيان رح يوصلوا ما عبعرف !"

رأينا البرميل الأول يسقط...
ببطء شيطاني.

كأنه لعبة...
ثم فجأة...
ارتجاج كامل.

الأرض ارتفعت.

السماء اختفت.

الصوت صار أبيض.

ثم عادت الدنيا، ولكنها لم تكن نفسها.

صرخت أم محمد:

– "الحي الغربي... راح!"

ركض الرجال بالبطانيات والماء.

الأطفال حملوا الأواني، يُفرغونها فوق النيران الصغيرة المتناثرة.

وأنا... كنت واقفًا عند الحائط، لا أسمع شيئًا.

كأن الطنين في أذني صار جدارًا من الصمت.

**

في المساء، عرفنا:

أن ثلاث عائلات دُفنت تحت أنقاض بيتين.

منهم رضيع لم يُعرف اسمه بعد.

46 شهيد ... في أسبوعٍ واحد فقط.

جاء الشيخ عبد الكريم إلى الجامع بلا خطبة.

وقف وهو يكاد يبكي ، ورفع يده، وقال:

— "يا أهل مضايا انتبهوا منيح اليوم صارت مجزرة عنا ... ومن كم يوم صار في مجزرة بداريا.

الوضع لا يوصف واللي جاي أعظم....."

في الليل، جلس أبي يشدّ رباط بندقيته.

قال لي:

— "هنن عم يمهّدوا... كل ما بيخسروا نقطة، بيرجعوا بيخبطوا المدنيين مشان يروّعونا."

ثم نظر إليّ، وقال:

— "إذا فاتوا بكرا... لا تبكي. بس تذكر: يلي ما بيدافع عن أهله، مو رجال."

خرج ليلا ً إلى الجبل، مع رفاقه.

وأنا جلست قرب ليلى، التي لا تزال تبكي منذ أربعة أيام.

وضعت رأسي على الحائط،

وأغمضت عيني،

وحاولت أن أتذكر شكل مضايا قبل أن يسقط أول صاروخ.

لكنني فشلت.

فالذاكرة لم تعد نظيفة...

إنها الآن... مليئة بالدخان.

3 أيلول 2012 – هذا البيت لا يشبه بيتنا

عدنا إلى البيت بعد غياب دام طويلا... لا أذكر كم غبنا

لم نكن نعدُ الأيام أو الأسابيع ، فهنا اصبحنا نعد الضحايا والمآتم

لم يكن الدخان ما خنقنا حين دخلنا...

بل الصمت.

الجدران رمادية أكثر من ذي قبل.

الهواء مشبع برائحة الطين المحروق.

وفي الزاوية، بجانب الباب، كانت بقايا حذاء ليلى الصغير، محترقة من جهة الكعب.

أمي لم تقل شيئًا.

فقط وضعت المفتاح في قفل الباب، فتحته ببطء، كما لو أنها تفتح قبراً،

ثم مشت إلى الداخل بخطى بطيئة.

ليلى تشبثت بفستانها.

أما أنا، فوقفت عند العتبة.

البيت نفسه...

لكنه ليس كما كان.

كأن الغارات غيّرت ذاكرته، ومسحت الأمان من الزوايا.

جلسنا على الأرض.

لا كهرباء. لا موقد. لا صوت سوى أنفاسنا.

أمي أزاحت الغبار عن وسادة قديمة، وضعت رأسها عليها دون أن تتمدد، ثم قالت:

— "ما بعرف ليش راجعين... ما ضل شي هون نستناه."

كانت تقولها لنفسها أكثر مما تقولها لنا.

أنا بقيت ساكتًا.

أشعر بشيء في حلقي... شيء لم يكن غضبًا، ولا حزنًا، بل شيء يشبه الحريق.

ثم انفجر.

— "أنا بدي أطلع مع الشباب قاتل . خلصنا بقى! كل يوم بمر... وأنا هون، عم شوف رفقاتي عم يموتوا واحد ورا التاني، وأنا؟ قاعد عم عدّهن بس !"

جاء صوت أبي من خلفي، لم أكن منتبهاً إنه دخل:

— "وهاد لحالو بيخليك رجال؟"

استدرت بسرعة. كان واقفًا عند الباب الخلفي، تراب يغطي كتفيه، وبندقيته معلقة على ظهره.

وجهه بدا أكبر من عمره.

قلت بعصبية:

— "انا ماني طفل! حسين مات! ابن عمّي مات! كلكون طلعتوا وأنا هون عم بستنى شو ؟ تموتوا واحد واحد؟"

اقترب مني خطوة.

— "شو بتعرف عن الموت؟"

سكتُ.

اقترب أكثر.

— "بتعرف شو أصعب من الموت؟"

لم أجاوب.

قال:

— "إنك تشوف أمّك عم تدفن ابنها بإيدها. إنك تسمع أختك عم تبكي بالليل وما تقدر تعمل شي. إنك تضطر تترك البيت وما تعرف إذا رح ترجع. هي الحروب، مو الشي اللي شايفه بعيونك بس."

نظرت إليه، صوتي منخفض:

— "بس أنا فيني قاتل. فيني كون معكن."

اقترب أكثر، صوته خافت لكن حاسم:

— "مشان شو؟ مشان تموت قبلي؟"

قلت:

— "مشان ما تموت لحالك."

هزّ رأسه ببطء.

جلس على ركبتيه مقابلي، ووضع يده على كتفي.

قال:

— "أنا بقاتل مشان انت تضل عايش.

مشان إذا طلع اسمي بالقائمة، تضل أمّك واقفة و تكون موجود لتسندها .

إذا وقعت، تضل أختك نايمة بأمان بوجودك.

وأنت، مشان تكتب، مشان تحكي.

مشان في يوم، إذا أنا ما رجعت... في حدا يذكرني، مو بس كشهيد، كأب."

سكتّ.

شعرت أن كل الكلام الذي كنت أريد أن أقوله تبخر ، تبخّر.

نهض، وعلّق بندقيته، وقال لأمي:

— "إذا صار شي... فارس بيعرف شو يعمل."

ثم خرج.

بقيت واقفًا مكانه، أنظر إلى الباب الذي لم يُغلق جيدًا.

ليلى كانت تلعب بخيطٍ من قميصها الممزق.
وأمي عادت تمسح الغبار عن البلاط بصمت.

وأنا،
كنت أحاول أن أصدّق أن الرجولة، أحيانًا...
تعني أن تبقى.

كانون الأول 2012 – البلد التي تأكل أهلها

كانت الحياة في مضايا قد ضاقت إلى حدّ لا يُحتمل.

لم نعد نعيش الأيام كما نعرفها...
بل نعدّها بصعوبة، مثل من يعد حبات الرز في صحنه.

الخبز اختفى منذ أسابيع.
الفرن أُقفل.
والطحين – إن وُجد – كان أغلى من الذهب.

صرنا نخلط العدس المجروش مع القليل من البرغل، ونخبزه على صفيحة معدنية، نحصل عليها من بقايا السطوح المدمّرة.

أمي صارت تحفظ عدد الأرغفة، وتخبّئها كما يُخبّأ السلاح.

الماء...قبل أن يشق الضوء، كانت النسوة يخرجن بأواني بلاستيكية، يلففن وجوههنّ بـ
الشال، ويتجهن نحو البئر القريبة من المقبرة القديمة.

ليس لأن البئر صالحة... بل لأنها الوحيدة التي لم تقصف بعد.

الرجال لا يرافقوهن غالبًا.

الخوف من القنص... أو من التوقيف... صار أكبر من الحاجة للماء.

في الأسبوع الماضي، سُمع إطلاق نار عند البئر.

الحقيقة أن القناص لا يهمه من يحمل الدلو...

ما دام الحيّ يعيش، فالرصاصة عمل ضروري.

الخبز؟

لا يُشترى، بل يُشاع.

"اليوم في خبز عند أم خليل!"

"الفرن اشتغل ساعة ورجع طفّى!"

"حدا شاف طحين؟!"

وإذا سمع الناس أن كيس طحين وصل من الزبداني،

تراهم يتجمهرون قبل أن تُفتح الحقيبة.

يصبح الرغيف عملة.

والمعونة الدولية، إن وصلت، يسبقها الخوف من كمين، أو قصف، أو مصادرة من الحاجز.

أما المدارس، فقد أُقفلت دون إعلان رسمي.

المدرسة الوحيدة التي بقيت أبوابها مفتوحة، صارت مأوى للنازحين من أطراف البلدة.

الصفوف تحوّلت إلى غرف نوم،

السبورة إلى حائط لتعليق أسماء المعتقلين ...و الضحايا،

والمقاعد... تحوّلت إلى حطب يُشعل في كانون الشتاء.

كان فارس يجلس في الصباح قرب نافذة مكسورة، يمسك دفتراً قديماً وقلماً بنصف سنّ، يكتب أشياء لا يفهمها أحد.

قالت له أمه مرة:

— "شو عم تكتب؟"

قال:

— "بس عبكتب. مشان إذا متنا... يعرفوا إنو كنّا هون."

في السوق، إذا وجدتَ حبة بندورة، فهي معجزة.

كيلو البطاطا؟ أغلى من الذهب.

اللحم؟ نكتة سوداء.

الحليب؟ ممنوع من الذاكرة.

كان الناس يقتاتون على العدس، إن وُجد، وعلى الأعشاب أحيانًا.

أطفال مضايا تعلّموا كيف يميزون الحشائش السامّة من غيرها قبل أن يعرفوا جدول الضرب.

الليل؟

أشد من النهار.

لا كهرباء، لا شموع، لا أمان.

الكل ينتظر ضوء القمر ليتحرك.

وإذا جاء صوت طائرة، يُطفأ كل شيء فورًا.

حتى الأنفاس.

وفي أحد الأيام، خرج رجل ليشتري علبة دواء لزوجته الحامل.

عاد في بطانية.

لم يعرفوا إن كان قتيلًا أم مجرد مريض آخر لم يتحمّل الانتظار.

قال صاحب الصيدلية:

— "انكتم قلبه... مو من الرصاصة، من القهر."

فارس كان يشاهد هذا كله، يحاول أن يفهم أي من هذه التفاصيل هو الحياة، وأيها هو الموت البطيء.

لكنه لم يكن يملك ترف التحليل.

فهو المسؤول عن ليلى الصغيرة، حين تخرج أمه تبحث عن شيء يُؤكل.

وهو من يحمل دلاء الماء حين لا يجرؤ أحد.

وكان قد فهم... أن من لا يقاتل بالحجر أو بالبندقية، يقاتل بالثبات.

في المساء، كنا نجلس صامتين.

ليلى تضع رأسها على ركبة أمي، وأنا أراقب الشمعة وهي تموت ببطء.

أحيانًا أفكر أن الشمعة تشبهنا.

لا تضيء... بل تحترق.

ولا تبكي... بل تذوب.

سألت أمي:

— "رح نضل هيك؟"

فقالت:

— " فارس... نحنا بنصبر مشان نضلّ بشر نِشبه حالنا، وما نصير متلن وحوش بلا كرامة ولاضمير "

لكن في الجبل...

كان هناك مَن يسمع.

في مساء 23 كانون الأول، عاد أحد المقاتلين من الزبداني، يحمل جهاز لاسلكي محمول.

أوصله لأبي سامر في الجبل، وهو يُدفئ يديه أمام نار صغيرة.

قال:

— "في شي... خبر غريب، مو طبيعي."

رفع أبو سامر حاجبه:

— "شو في؟"

أجابه الرجل، وهو يبحث في الموجات:

— "بيقولوا... النظام ضرب كيماوي بحمص. بحي البياضة."

سكت قليلا ً، ثم تابع:

— "ناس ماتت خنق. ما في دم، بس وجوههم مزرّقة. الأطفال أول ناس ماتوا."

تجمّع المقاتلون حول الراديو.

قال أحدهم:

— "كيماوي؟ مستحيل!"

ردّ عليه آخر:

— "ليش مستحيل؟ إذا قتل بالبراميل والصواريخ وبالقنابل... شو ناقصه؟ رحمة هاد النظام المجرم مافي شي غريب عنو ومستعد يمارس كل طقوس الطغيان و يتحالف مع الشيطان في مقابل يضل قاعد على الكرسي هو وحزبو"

أبو سامر لم يتكلم.

أشعل لفافة تبغ رطبة، وأخذ نفسًا عميقًا.

ثم قال:

— "بشار الأسد... ما بيكفيه القتل. بده يقتل ويمحي. بده لما تموت، ما تعرف ليش متت.

بدي يخلي من موتك عبرة لباقي الشعب متل ابوه حتى ما يفكر حدا يرجع يطلع ضد طغيانو وفسادو مرة تانية "

اليوم بحمص...

بكرا عنا."

ونظر إلى السماء...

ثم بصق جانبًا.

وقال:

– "راح نشوف أيام، الموت فيها بيصير أرحم من الانتظار."

24 كانون الأول 2012 – حين احترق الهواء

كانت الليلة شديدة البرودة.

الثلج لم ينزل بعد، لكنه كان معلقًا في السماء، كأن الغيم يهدد أكثر مما يعد.

جلسنا في البيت، بلا كهرباء.

شمعة صغيرة على الطاولة الخشبية تناضل كي لا تنطفئ، وأمي تحاول طهو شيء لا يشبه الطعام فوق موقد صغير بالكاد يحترق.

ليلى نائمة... صدرها يصعد ويهبط كأنها تتنفس بصعوبة.

أما أنا، فكنت أنظر إلى الجدار المقابل، حيث لا شيء... إلا الظل.

وفجأة، انفتح الباب.

دخل خالي، وجهه شاحب، عيونه تائهة.

قال بصوت خافت، لكنه مسموم:

— "حمص... ضربوا كيمياوي بالبياضة."

أمي توقفت، الملعقة سقطت من يدها على الأرض.

سألته، بنبرة خائفة أكثر منها مستغربة:

— "كيمياوي؟ يعني غاز؟"

هزّ رأسه.

— "ناس عم تموت واقفة... بدون جرح. بدون طلقة.

العيون مفتوحة، الفم أزرق... وفيه أطفال! أطفال يا أم فارس... اختنقوا متل الطيور."

سقط الصمت في الغرفة.

أشبه بغطاء سميك من الصدمة، لا يُرفع بسهولة.

حتى ليلى فتحت عينيها فجأة، ثم أغلقتهم من دون صوت، كأن شيئًا ما اخترق نومها.

أنا لم أفهم كل التفاصيل...

لكنني شعرت بشيء خبيث، جديد، يتسرّب إلى قلبي.

كنت أعرف أن النظام يقتل.

لكني لم أعرف أنه قد يختار أن "يُبيد".

كأننا انتقلنا من زمن الرصاص... إلى زمن الغازات.

من الحرب... إلى الإبادة.

قال خالي، وهو يجلس على الأرض:

– "ما عادت حرب يا أختي... صار اسمها ابادة."

أجابت أمي، بصوت غريب، خافت، لكنه عميق:

– "يعني كل هالشي الي صار ما بكفي ؟ كل هالجوع والبرد والحزن والقتل ما شبعوا من دمنا لسه ؟"

في تلك الليلة، لم أستطع أن أنام.

فتحت دفتري الصغير، ورسمت دائرة، وفي وسطها كتبت:

"البياضة – حمص – أطفال ماتوا بالهواء."

ثم تحتها:

"إذا كان الهوا صار سلاح... شو ضل؟"

في الصباح، بدأ الناس يتهامسون.

في الحارة، قالت امرأة وهي تغلق باب بيتها:

– "الكيمياوي وصل، يعني نحنا جايينا الدور ؟."

وقال شاب وهو يرفع بطانية محروقة من الأرض:

– "إذا كان الغاز عم يقتل، والخبز مش موجود، والماء مخلوط بالتراب... يعني بدنا

نموت بأي طريقة... بس في الله ... ."

عاد أبي إلى البيت قرب منتصف الليل.

لم يقل شيئًا وهو يخلع حذاءه عند الباب.

وجهه شاحب من التعب، والبرد محفور في عظامه.

جلس على الأرض، بجانب الموقد الصغير الذي بالكاد يلفظ حرارة، وفتح كفيه نحو النار كما لو كان يطلب منها رحمة.

لم أحتمل أكثر.

اقتربت منه، وجلست أمامه، ثم همست:

— "خدني معك."

لم ينظر إليّ.

كررت، بصوت أضعف، لكن بعناد:

— "خدني... ما عاد فيني أقعد، بابا."

أمي كانت تنظر من الزاوية، لكنها لم تتكلم.

في عينيها خوف، وفي شفتيها صمت.

كأنها تعرف أن الكلام لم يعد ينفع.

قلت:

— "ما رح عيّقكم... ما بدي سلاح، بس خليني كون معكم... حتى لو حارس، حتى لو بس ساعد!"

ظلّ صامتًا.

كأن الصمت نفسه كان قرارًا.

فجأة، رفع رأسه، نظر إليّ مباشرة.

عيناه كانتا متعبتين، لكن فيهما شرارة.

قال:

— "اللي رح تشوفه برا... ما بيشبه شي عرفته.

مو بطولة، ولا أكشن، ولا نصر كل يوم."

أومأتُ برأسي.

— "بعرف."

— "رح تشوف ناس عم تبكي وما تقدر توقف لتبكي معهن.

رح تشوف رفيقك عم يوقع قدّامك... وما فيك تعمل شي.

ورح تجوّع، وتبرد، ويمكن تموت، ومحدا يسمع."

قلتُ بلهفة:

— "بس بدي أكون معك. مو أكتر."

سكت لحظة طويلة.

ثم تنهد... تنهيدة رجل يعرف أن ابنه لن يعود طفلًا بعد الآن.

قال:

– "طيب... بس إذا طلبت منك ترجع، بترجع. إذا قلت ارجع... بترجع."

لم أجاوبه. فقط هززت رأسي.

في الفجر، خرجنا.

مشينا عبر الحقول المعتمة، برد كانون ينهش أطرافنا، لكن قلبي كان دافئًا على نحوٍ غريب.

وصلنا إلى تخوم البلدة، ثم إلى بيت كبير مهجور، تحوّل إلى نقطة تجمع مؤقتة.

في الداخل، أكثر من ثلاثين رجلًا.

منهم من يرتدي بزّة عسكرية قديمة، ومنهم من يلفّ كوفيّة حول عنقه ويشدّها بأسنانه.

رائحة العرق، البارود، الخوف... والكرامة.

كان الصمت يلفّ المكان.

ثلاثون مقاتلًا... واقفون في دائرة نصف مغلقة، يحيطون بطاولة خشبية وخرائط مبعثرة، وأسلحة متناثرة على الأرض.

ثم دخل العقيد المنشق "عاصم"، قائد كتيبة مضايا الأولى "عاصم"، رجل خمسيني، ببزته العسكرية القديمة، والبند الأحمر يلفّ كتفه، وعلى وجهه ملامح من عاش أكثر مما يجب... ورأى ما لا يُنسى.

وقف في وسط الدائرة.

نظر إلى الجميع، واحدًا واحدًا.

ثم وضع يده على صدره، وقال:

"أنا العقيد المنشق عاصم سليمان... من ضباط الجيش السوري سابقًا.

خدمت 28 سنة تحت راية كان يُفترض أنها تحمي البلد... واكتشفت أخيرًا أنها تحمي الكرسي."

"وقفت هون اليوم، مشان أقول شغلة وحدة:

نحنا ما عدنا نطلب حياة كريمة...

نحنا رح ناخدها."

"اللي ضرب البياضة بالغاز، وقتل أهل داريا بالسكاكين، وسجَن أحرارنا، وشرّد نساءنا...

ما بيستاهل إلا ينكسر، ويندفن."

"اليوم، قدام الله، وقدام دم الشهداء، وقدام كل أمّ ما عاد إلها غير صورة ابنها..."

(يخرج مصحفًا صغيرًا من جيبه، يضعه على الطاولة، يرفع بندقيته ويضعها إلى جانبه)

"نقسم بالله العظيم...

أن لا نضع سلاحنا،

ولا نركع،

ولا نفاوض على دم،

ولا نهادن قاتل...

حتى يسقط هذا النظام المجرم ومن يمثله من حزبا وجيش وقيادة،

ويُحاكم كل من لوّث يده بدم أو قهر."

"من هون من مضايا، من أطهر أرض حاصرها الجوع،

نبدأ...

وكلنا نعرف: إما الحرية... أو الشهادة ."

"يا رجال... الجبهة أول الطريق.

و لورا ما عاد فيه رجعة."

سكت لحظة.

ثم أشار بيده نحو الباب:

– "يا الله... خلينا نرجّع صدى الحق للجبال."

في تلك اللحظة، كان فارس واقفًا في الزاوية، فمه نصف مفتوح، قلبه يدقّ في صدره كأنه يردّد القسم دون أن ينطقه.

ولأول مرة... لم يشعر بالخوف.

بل بشيء يشبه الانتظار.

انتظار المعركة.

وانتظار لحظة يُثبت فيها... أنه وُلد ليردّ على الظلم، لا ليخافه.

ليلتان في الجبل – كانون الأول 2012

(قبل العملية الأولى لكتيبة مضايا الأولى)

وصلنا إلى المقرّ مع غروب الشمس.

بيت قديم في طرف الجبل، تحيطه أشجار ميتة وسور متهالك، ومدخله مغطّى ببطانية ممزقة.

لا أبواب، لا نوافذ حقيقية، لكن فيه دفء غريب...

دفء الرجال الذين قرروا أن يدفنوا الخوف.

دخل أبي أولا ً.

أما أنا، فدخلت وراءه كمن يتسلل إلى كمين كي لا يرى.

في الداخل، كان هنالك مجموعة من الرجال ...

بعضهم يعرف أبي، وبعضهم لم أره من قبل.

عيونهم متعبة.

أيديهم سوداء من البارود والطين.
ضحكاتهم مترددة، لكنها حقيقية... كأنهم يحاولون تذكير أنفسهم أنهم ما زالوا أحياء.

قال أحدهم، شاب في الثلاثين، ولحيته لم تكتمل:
— "مين معنا؟"
ردّ أبي وهو يشير إليّ:
— "ابني... بس جايي يتفرج ويتعلم ، مو يحارب."

ابتسم الشاب، ثم مدّ يده إليّ:
— "معناتها فارس... رح تكون عيوننا عليك."

جاؤوا لي بفنجان شاي مغلي على حطب.
كان مرا... لكنه كان يشبه الحياة هنا: حارق، فقير، لكنه يُشرب رغمًا عنك.

في اليوم الأول، أمضيت النهار أراقبهم.

أحدهم كان يُصلح بندقيته.
آخر يشرح على الرمل خطة الالتفاف حول حاجز الجسر.
ثالث يُعيد ترتيب الرصاص في حقيبة جلدية قديمة.

رابع يجلس على حجر، يكتب رسالة على ورقة صفراء.

سألته:

— "لمين بتكتب؟"

قال دون أن يرفع عينيه:

— "لأمّي... إذا مت، بدي حدا يوصلها."

كانوا يقسمون الأدوار:

واحد للمراقبة.

اثنان للاستطلاع.

ثلاثة للتنفيذ.

وآخرون للدعم والانسحاب.

كل شيء بدا بسيطًا...

لكنه كان أعقد مما تخيّلت.

هنا لا قادة فخمين.

لا أجهزة لاسلكية متطورة.

لا طائرات...

بل فقط: إرادة.

في المساء، اجتمعوا حول نار صغيرة.

أشعلوا سيجارة واحدة، يتبادلونها كأنها كنز.

بدأوا الحديث.

أحدهم، من بلودان، قال:

– "بتتذكروا لما كنا نعيد بعيد الأضحى ونطلع من صلاة العيد ونفتل نزور بعض و التكبيرات من الجوامع بكل مكان ؟ يا خسارة هلق العيد صار رفاهية ما قادرين نتحمل تكلفتها جيش هالمجرم لا ترك مآذنة واقفة ولا ترك أهل نزورهن دخلّ الفقد والحزن لكل بيوت الشام."

ضحك الثاني، ثم قال:

– "أنا أكتر شي بشتقله... صوت أمي وهي تقول: قوم تأخرت ع الجامعة."

الثالث سكت، ثم همس:

– "أنا كنت أدرّس فيزياء... بس هلأ عم درّب عالم عالبارود."

ثم التفت إليّ وقال:

– "شو كنت تحب، فارس؟ قبل كل هاد؟"

فكرت...

ثم قلت:

– "كنت بدي أصير صحفي... و أنقل الحقيقة."

ضحك أحدهم:

– "الحقيقة؟! يا أخي إذا شفتها، لا تنسَى تصورنا معاها!"

ضحكوا...

ضحكنا جميعًا.

لكن خلف الضحك، كان شيء ثقيل...

شيء يشبه الوصية.

في الفجر، بدأت التحضيرات الجدية.

الخريطة على الأرض،

البوصلة،

الكلمات القليلة... والوجوه الجادة.

العقيد عاصم دخل ببطء، وقال بصوت لا يقبل تكرارًا:

– "الساعة 4 العصر... بنبدأ.

ضربة وحده، سريعة، مركزة.

الهدف: حاجز الجسر.

مشان البياضة... ومشان مضايا... ومشان نحنا."

ثم نظر إلى أبي.

قال له:

– "خلي ابنك يرجع... مابدي يتأذى ..."

التفت إليّ أبي.

لم يتكلم.

اقترب مني، ووضع يده على كتفي.

ثم همس:

– "فارس ... رجّاع لعند أمّك بكون قلبها متل النار ا."

سكتُ...

لكن قلبي كان يصرخ.

لا أريد أن أذهب.

عرفت أن الذهاب الآن... هو جبن مني.

مشيت وحدي في الطريق، أنظر خلفي كل بضع خطوات.

لم أكن خائفًا من العتمة...

بل من أن أسمع الصوت.

الصوت الذي سيكسر السكون،

ويعلن أن النار بدأت.

26كانون الأول 2012 – حين بكى الجبل

ما قبل الرصاصة

الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر.

الجبل ساكن، لكن فيه شيءٌ يرتجف.

الشمس تميل نحو الغروب، كأنها تخشى أن تشهد ما سيحدث.

في المقر، الكتيبة تستعد.

الخرائط على الأرض، الخنادق مرسومة بعصا على التراب، والوجوه متجهّمة.

لا صراخ. لا حماسة مصطنعة.

فقط ذلك الصمت...

صمت من عرف أن هذه اللحظة قد تكون الأخيرة.

عاصم وقف في المنتصف.

عقيد سابق، ملامحه تكسّرت بفعل العمر والحرب.
أمسك بخريطة، ثم رماها أرضًا دون أن ينظر فيها، وقال:

— "الخطة بتعرفوها... ما رح عيد شي.
بس في شي بدي قوله قبل ما نتحرك."

الجميع سكت.

— "هالعملية مو استعراض.
مو مشان نثبت إنو نحنا منعرف نطلق النار..."

اقترب خطوة إلى الأمام، رفع صوته:
— "نحنا رايحين نردّ على سنين من الذل.
نردّ على ولاد مضايا اللي ماتوا من الجوع...
على أمّ دفنت ابنها وهي عم تبكي بصوت واطي مشان ما يسمعها الحاجز.
على رجال انسحبوا من قدام أولادهم لأنو ما في خبز ياكلوه.
على كل حجر انكسر، وكل كتاب تحوّل لحطب، وكل شباك ما عاد يفتح."

ثم نظر إلى أحد الشبان، وقال بصوت متهدّج:
— "ورايحين نردّ عالكيماوي... إي، عالكيماوي.
ضربوا البياضة بالغاز... قتلوا الناس وهي عم تتنفس، لأنو قالوا بدنا نعيش."

صوته ارتجف.

– "ما عاد فيهم زلم تقاتلنا...

صاروا يضربوا الهوا الي بيتنفسوا ولادنا وأهلنا."

أشار نحو البنادق:

– "نحنا اليوم، مندافع عن النفس... عن نفسنا اللي بعدها قادرة تحكي، تبكي، تصرخ، و تصلي.

وإذا استشهدنا... بكون متنا واقفين.

بس إذا سكتنا... منموت وإيدينا فاضية بذل وخنوع."

ثم قالها، بهدوء مخيف:

– "الله معنا... والجهاد طريقنا ... و قبلتنا إما النصر أو الشهادة

ولعنة الله على القتلة الظالمين "

كنت في البيت.

منذ وصلت وأنا أُراقب الباب...

ليس بانتظار عودة أبي، بل بانتظار الصدى.

السماء رمادية، والهواء مشبع برائحة البارود القديمة.

كأن مضايا تحبس نفسها.

ثم، في لحظة ما...

تكسّرت السماء.

دويّ أول،

ثم ثانٍ،

ثم صراخ بعيد.

ليلى قفزت من مكانها، أمي وضعت يدها على صدرها.

وأنا... وقفت عند الباب.

لم أبكِ.

لكني شعرت أن قلبي يريد أن يجري، أن يخرج من جسدي، أن يكون هناك معهم، بأي شكل.

حاجز الجسر...

نقطة أمنية تحوّلت إلى حصن من الخوف.

الآن... هو يحترق.

المقاتلون انتشروا على الأطراف، يُطلقون النار من خلف الصخور.

أبو سامر يقود مجموعته، يصرخ:

— "يمين! التفاف! لا تتركوا الثغرة!"

شاب في العشرين، ابن أبو علاء، يركض بين الموقعين، ينزف من ساقه، ويضحك.

— "أجتني رصاصة بس خفيفة! كملوا يا رجال!"

في وسط ساحة المعركة، وقف عاصم، لا يطلق النار...

بل يُراقب، يوجّه، كأنّه يكتب التاريخ على نار.

ثم انفجر الحاجز من الداخل.

دويّ عنيف.

صراخ جنود يهربون.

واحد منهم رمى سلاحه واستسلم.

آخر سقط وهو يصرخ بأمه.

فجأة، سمع صوت ابو سامر:

– "الحاجز سقط! الكهرباء معنا!"

ثم، التكبيرة الأولى:

– "الله أكبر!"

ثم تبعتها عشرات الأصوات:

– "الله أكبر! الله أكبر!"

الرجال يبكون وهم يركضون.

بعضهم يسجد على التراب.

شاب اسمه محمود، جلس بجانب الجدار، يمسك بيده صورة صغيرة خرجت من جيب ا لأسير:

– "هاد ابنك؟! لك مانك خايف عليه يكبر بهيك ظلم ؟! يا الله...انتوا المفروض أخوتنا المفروض

نوقف مع بعض ليش هيك عبصير ... السلاح سلاحنا والشباب شبابنا ، والله شي بزعل لوين وصلنا؟"

ردّ عليه أبو سامر وهو يضع يده على كتفه:

– "نحنا عم نقاتل لنحمي ابنك ... مشان ما يصير في متل ابني.. مشان يكبر ما يخاف

من الكلمة

مشان يعيش بكرامة "

لم يجب الأسير بأي كلمة سوى السعال و التحديق في الأرض ثم طلب الماء

في الجبل، بعد نهاية الاشتباك، جلس عاصم على صخرة، بندقيته على ركبته، ووجهه مغطى بالغبار.

قال بهدوء:

— "هاد مو بس نصر...

هاد أول نفس بعد الغرق."

ثم أضاف، كمن يُنهي وصية:

— "واللي بلشنا اليوم... ما حدا بكملوا غيرنا،"

وصلت الأخبار إلى مضايا كما تصل النار إلى القشّ.

النساء خرجن من البيوت.

رجل عجوز، كان لا يتكلم منذ أن مات ابنه، سجد على الإسفلت.

صوت في الحارة:

— "تحرّر حاجز الجسر! أول نقطة سقطت!"

الجامع صدح بالتكبير، لا أذان ولا خطبة.

بس "الله أكبر" وكأن المئذنة تبكي.

في الزبداني، كتب أحد الشباب على الجدار:

"من مضايا... بلش الطريق."

في دمشق، بين الهمس والخوف، قال شاب لصديقه:

– "قالوا مضايا هاجمت... بلشوا؟!"

ردّ الآخر:

– "وأخيرًا... ماقصروا ... عاشت أيديهم."

في الليل، عاد أبي.

فتح الباب، نظر إليّ.

عيناه لم تكن متوهجتين بالنصر... بل بالهدوء.

الهدوء الذي يأتي بعد أن تنقضي الكارثة، وتبقى أنت واقفًا، تتنفس.

قلت له:

– "انتصرتوا؟"

أجاب، وهو يخلع سترته، ويجلس قرب الموقد:

– "إيه... بفضل الله بس الطريق طويل يا فارس."

ثم سكت قليلًا، ونظر إلى أمي، وقال:

– "بس بلشناه."

في الخارج، كانت السماء تمطر لأول مرة منذ أسابيع.

أمطرت...بعد أن ابتلت القلوب بالنصر.

31 كانون الثاني 2013 – الحصار لا يبدأ بالأسلاك

لم تنزل أي قذيفة ذلك اليوم.

لا راجمة، لا طائرة، لا صفير رصاص.

لكن شيئًا ما... كان يسقط.

ليس من السماء.

بل من الداخل.

أمّي استيقظت على غير عادتها مبكرًا.

أشعلت الموقد الحجري، وأخذت تقلب في الصندوق الصغير بجانب الطاولة، تبحث عن شيء لم تعد تراه.

قالت وهي تفرغ الكيس في يدها:

— "ما ضلّ غير شوية طحين... حتى العدس خلص."

سألتها:

— "منروح عالسوق؟"

أجابت دون أن تلتفت:

— "ما في سوق."

خرجتُ وحدي.

الشارع رماديّ.

الدكاكين مغلقة.

حتى ذلك العجوز الذي كان يبيع السكاكر في الزاوية يوما ما ... لم يعد هناك.

وصلتُ إلى دكان أبو خالد، فتح لي الباب نصف فتحة، ثم قال هامسًا:

– "معليش يا ابني... ما في شي اليوم."

سألته:

– "ما في سكر؟ خبز؟ حتى مي؟"

هزّ رأسه، وأغلق الباب بلطف، كأنّه يعتذر عن وجوده نفسه.

في الممر الخلفي، وجدت امرأة تجلس قرب سور المدرسة القديمة.

كان في حضنها طفل يرضع من صدر فارغ.

عيناها مغمضتان.

كأنها تحاول أن تقنع نفسها بأن الحليب سينزل إذا أغمضت كل شيء.

عدت إلى البيت.

أخبرت أمي، فقالت:

– "لازم نخبّي شويّة مي... إذا بقي في مي أصلا ً."

في المساء، جاء خالي.

كان يعمل في أحد مراكز الإسعاف الميداني.

جلس وهو لا يزال يلبس معطفه.

شرب كوبًا من الشاي الفاتر، ثم قال بصوت منخفض:

– "شفت اليوم سيارة إسعاف واقفة عالحاجز.
مريضة حامل، عم تنزف، وبدن يطلعوها على الزبداني.
الحاجز ما رضي."

سألته أمي:
– "ليش؟"
قال وهو يحدّق في الأرض:
– "ما حدا بيقدر يطلع من مضايا بدون إذن خاص... صار ممنوع.
الطريق سكّروه."
سألتُه أنا:
– "الحاجز نفسو تبع الجيش؟"

رفع حاجبيه، ثم قال:
– "فيه شباب جداد... ما فهمت لهجتن.
واحد قال للتاني: (يا الله يا حاج، ما بدنا نطوّل، خلينا نرجع عالضيعة)."

ثم أضاف:
– "ما بيحكوا متل ضيعنا... متل أهل الجنوب. متل... متل جماعة حزب الله."

سكتنا جميعًا.
حتى الموقد لم يعد يقرقع.

كأننا جميعًا فهمنا أن الأسلاك بدأت تُشدّ... لكن دون أن تُرى.

في الليل، كان أبي قد عاد لتوه من نقطة المراقبة.
شرب الماء، ثم جلس في العتمة قرب الباب.

قلت له:
— "سمعت شي اليوم؟"

قال:
— "الحاجز الشرقي صار ممنوع تقطعه إلا بورقة مختومة.
والخَبز ما عاد يفوت إلا لناس معيّنة..."

ثم نظر إليّ، وأضاف:
— "هيك بيبدأ الحصار يا فارس...
مو بالسياج...
بالتمييز، وبالخوف، وبالشحّ."

قلت:
— "بس ما في قصف اليوم."

قال:
— "لأنّو الجوع أقسى من الرصاص... بيفتك بالكرامة قبل الجسد."

في الغرفة، أمي أطفأت الشمعة.

ليلى نائمة، ذراعها على عينها كأنها ترفض رؤية شيء.

أما أنا، فجلست عند النافذة.

الشارع فارغ.

الظلام كثيف.

وكل شيء... بدا كما لو أنه ينتظر شيئًا لا يُقال.

كتبت في دفتري:

"يبدو أن الحرب ليست دائماً ضجيج.

أوقات، الحرب هي عندما لا تسمع شيئاً... لكنك تشعر بكل شيء."

"الهواء يضيق"

من 5 شباط إلى 20 آذار 2013

منذ الخامس من شباط... بدأت البلدة تتغيّر.

لا إعلان رسمي. لا بيان من المحافظ. لا صفّارات إنذار.

لكن كل شيء صار يبدو "أثقل"...

الهواء، الخطى، حتى السلام بين الجيران.

كأنّ مضايا دخلت في نفقٍ رماديّ، لا نهاية له ولا باب واضح منه.

في الصباح، خرجتُ مع أمّي إلى الطريق المؤدي إلى بلودان.
كانت تحمل كيسًا صغيرًا فيه وصفة طبية، وورقة دواء كتبها أحد الممرضين يدويًا.

عند الحاجز، أوقفنا الجندي بيده الملطّخة بالبرد، وقال بصوت آلي:

— "ممنوع تطلعوا اليوم. تعليمات جديدة."

سألته أمي:
— "بس بلودان، مشان الدوا..."

ردّ دون أن يرفع عينيه:
— "ما في طلعة ولا فوتة بلا تصريح."

نظر إليّ لحظة، ثم بصق على الأرض، وأدار ظهره.

عدنا إلى البيت، والدواء ما يزال ورقة بين يديها.

قالت وهي تخلع خمارها ببطء:
— "حتى الدوا صار بدو تصريح وأذن الله لا يسامحهم شو عبيعملوا فينا"

أما سوق البلدة بدا خافتًا كأنّه يحتضر.

بقالة أبو خالد أغلقت أبوابها يومين كاملين.

الفرن لم يعد ينتج إلا ربطة واحدة لكل ثلاثة أيام.
دكاكين الخضار باتت تبيع بصلًا يابسًا، وأكياسًا مغلفة لا تعرف محتوياتها.

قال أحدهم:
— "اليوم ما في سكر... بكرا ما في رز... بعدين يمكن نحنا ما نكون موجودين."

كان بعض الرجال يتحدّثون عند مدخل الجامع:

— "قال النظام عم يضيق الخناق مشان يفضوا الجبل من الشباب."
— "وإذا ما طلعوا؟"
— "رح يستمر القصف ... أو بيخنقنا بالحصار ."

وبين الكلام، كان الخوف يحوم.
كأنه طيرٌ بلا أجنحة... يرفرف بصمت فوق الرؤوس.

في الأسبوع الأول من آذار، جاء رجل من الزبداني، مهرب خبز ودواء.

قال بصوت خافت:
— "شفتهم بعيني...
عند جامع التكية...
عم يحكوا لبناني، وما حدا بيقرب صوبهم.
كل واحد حامل آر بي جي، وعليه شعار حزب الله."

أبو سامر علق لاحقًا، بصوت لم يُسمع إلا بين أقرب رفاقه:

— "هني مو جايين مشان يحافظوا عالسيدة زينب...يا خسارة كل هالسنين كنا مخدوعين

بحزب الله على أساس أخوتنا وأصحاب قضية وتحرير ومقاومة ... بالأخير دخلوا ليدعموا نظام فاقد للشرعية

هاد دليل انو النظام بلش ينكسر ويتوجع حتى طلب الدعم من أذرع خارجية

لك وين في نظام دولة في العالم بيطلب ميليشيات ليقتل شعبه .. لعمه"

الناس بدأت تهمس:

— "في شي جاي... بس ما منعرف شو هو."

أما فارس، فكان يُدوّن كل شيء.

في الليل، جلس قرب النافذة، وكتب:

"في ناس بتدور عالأكل... وفي ناس بتدور عالكرامة.

ونحنا صرنا بين اتنين ما بيجتمعوا ببلد بيحكمها الطغيان والقهر."

في 14 آذار، غاب محمود.

شاب كان يبيع الكعك على باب المدرسة.

قالوا إنه اختفى عند حاجز بلودان.

ثم قالوا إنهم وجدوا سترته عند المزارع.

ثم قالوا إنه انشقّ ولحق أبو سامر.

لا أحد يعرف الحقيقة.
لكن الجميع صار يخشى أن يكون التالي.

في الجامع، سمع فارس أحد الرجال يقول:

– "ابني ما عاد أخليه يروح لحاله...
حتى ع السوبر ماركت بمشي معه."

مضايا... بدأت تُغلق على نفسها.
ليس بالأقفال، بل بالخوف.

في أحد الليالي جلس فارس مع أبيه قرب الموقد.

قال فارس:
– "ليش عبصير فينا هيك؟ ما حدا عم يسمعنا. لا خبز، لا مي، لا أمان."

أجابه الأب، وهو يشعل عود الثقاب:
– "لأنو اللي بيحافظ على كرامتو... ما بيقيسها بعدد الأرغفة.
اللي بدو يعيش بكرامة و مايرضى الذل بدو يتحمل ."

سكت فارس، ثم قال:

— "بس بابا نحنا اتعبنا عنجد الشي الي عبصير فينا ما بيقبلوا العقل."

ردّ الأب:

— "فارس قلتلك مافي نصر بدون تعب بدون تضحية .. بدنا نصبر ."

في تلك الليلة، كتب فارس في دفتَره:

"الهواء لا يزال موجوداً... لكن هنالك شيء في صدري بدأ يضيق لا أعرف السبب.

ربما لأن الحصار لم يبدأ من الخارج ... بدأ من الداخل عندما خانتنا الكلمات والدموع."

5 آذار 2013

الخبر الذي لم يكن متوقعًا 5 آذار 2013

كان صباحًا كغيره من صباحات آذار الباردة.

السكون على الطرقات، والبرد في الأرواح، والناس تستيقظ لا لتعيش... بل لتكمل الا نتظار.

فجأة، دخل أبو خالد إلى الحارة وهو يركض.

وجهه متورد رغم الشتاء، وصوته أعلى من المعتاد.

— "تحررت! الرقة تحررت الرقة!"

لم يصدّقه أحد في البداية.

توقف عند الباب الأول، قالها ثانية، ثم ثالثة.

— "مدينة الرقة... تحررت بالكامل. الجيش انسحب!

رايات الثورة ترتفع فوق مبنى المحافظة!"

خرج الناس من البيوت، ببطء أولا ً، ثم بسرعة.
امرأة رفعت يدها نحو السماء وقالت:
– "اللّهم لك الحمد! اللّهم صلّ على محمد!"

في لحظة، صارت الحارة ساحة تجمع.
الناس يهمسون، يبكون، يتعانقون.

طفل خرج يركض وفي يده كرتونة كتب عليها "الرقة حرّة".
شيوخ رفعوا رؤوسهم، وعيونهم دامعة، وكأن الزمن توقف ليسمح لهم أن يحلموا.

في الجامع، خرج صوت المؤذن، لكنه لم يقرأ الأذان.
فقط كرر جملة واحدة:

– "الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر."

أبو سامر كان واقفًا عند باب البيت.
نظر إلى زوجته، وقال:
– "إذا مدينة كاملة مثل الرقة تحررت... نحنا شو ناقصنا؟"
ردّت وهي تبتسم لأول مرة منذ شهور:
– "ما ناقصنا غير الإيمان اللي عندهم."

فارس، من شرفة المنزل، كان ينظر إلى الناس كما ينظر الطفل إلى عيد لم يعرفه من قبل.

شعر بأن قلبه يكبر فجأة... وأن مضايا، رغم البرد والجوع، ما زالت قادرة أن تحلم.

في تلك الليلة، جلس في غرفته، فتح دفتره، وكتب:

"اليوم... رأيت مدينة تتحرر، وقرية تتنفّس.

ربما لا نحتاج إلى النصر لنبتهج... بل فقط نحتاج إلى خبرٍ إن أمكن."

العبور المؤجل 12 آذار 2013

كانت السماء رمادية، ساكنة بلا مطر.

والبلدة تبدو في ذلك الصباح كأنها لا تنتظر شيئًا... لكنها تتوجّس من كل شيء.

لم يكن في وجه أبي عدنان شيء يوحي بالأمل.

كان يطرق الباب بعينين لا تسألان، بل تعتذران... كأن مجرّد الطلب صار حملًا ثقيلًا.

قال بصوتٍ منخفض:

"الولد ما نزل، وهي عبتموت من الألم."

أبي سأله دون مقدمات:

— "حكيت مع القابلة؟"

أجاب الرجل:

— "أم حسام جاهزة، بس هي بتخاف تمر من الطريق العام.

الحاجز منعها مرّتين الأسبوع الماضي من الدخلة.
قالوا لا في طلعة ولا دخلة ممنوع حدا يمر ."

سكت لحظة، ثم أضاف بصوت أكثر رجاءً:
— "في ممر بين البساتين... طريق خلفي.
بدنا حدا يرافقها، ويراقب الطريق... بهدوء."

لم يكن السؤال عن "كيف" ولا "من أين".
كل من في البلدة صار يحفظ أن الطريق الوحيد للعبور هو البساتين،
وأن كل التفاف عن الحاجز،
هو مقامرة بالحياة... من دون أوراق.

انطلقت الخطة في صمت.

أبي رافق القابلة على الطريق المختصر عبر الأشجار.
وفارس، بأمر مباشر، صعد التل المطل على الطريق القديم.

كان دوره واضحًا: يراقب بصمت، دون اقتراب، دون مخاطرة.

مرت عشرون دقيقة...
ثم ظهرت القابلة من بين الشجيرات، تتقدم بخطى حذرة، ملفوفة بمعطف رمادي قديم.

فارس لمحها تمر من تحت ظل شجرة التين، وأبي خلفها.

لا صوت.

لا حركة على الحاجز.

دخلت القابلة إلى بيت "أبو عدنان".

كان الصراخ قد بدأ يُسمع في الزقاق.

فارس بقي عند طرف التلة، يعدّ دقائق الانتظار.

الولادة لم تكن سهلة.

نزيف داخلي، تأخر في التنفس، ضعف في النبض.

كانت أم حسام تبذل جهدها بكل ما تملك من معرفة، ويديها ترتجفان تحت ضغط الحياة التي تفرّ من بين أصابعها.

وبعد ساعة ونصف...

خرج "أبو عدنان" من البيت، واقفًا في العتمة.

لم يحمل بين يديه طفله.

ولم ينظر إلى أحد.

أغلق الباب وراءه، وجلس على عتبة المنزل، ووجهه فارغ كأنّه قديم جدًا.

فارس عاد إلى البيت قبلهم.

لم يسأل شيئًا.

وحين دخل أبوه، قال بهدوء:

– "تأخّرنا... وكان النزيف أسرع مننا حسبي الله ونعم الوكيل."

جلس فارس على الأرض، أخرج دفتره، وكتب:

"لم يكن الحاجز هذه المرة من حجر...

كان الزمن.

تأخرنا... فماتت.

ماتت بصمت، لأن الطريق أطول من اللازم، والمساعدة أبعد من اللازم."

قرار الجبل 4 نيسان 2013

بيت مهجور على أطراف مضايا – غرفة عمليات الكتيبة

كانت الغرفة مضاءة بمصباح يتدلى من سلك مهترئ.

على الطاولة الخشبية في المنتصف، خريطة قديمة، وأكواب شاي بارد، وبندقية لا أحد يلمسها.

خمسة رجال من قيادات الكتيبة كانوا حاضرين.

أبو العبد كان أول من فتح الحديث:

– "من كم شهر، ما كان حدا بيعرف إنو في شي اسمه كتيبة مضايا.

اليوم، الكل عم يطلب مننا نلتحق بالقيادة العليا."

ضحك بسخرية قصيرة، ثم قال:

– "نحن؟ ما معنا لا ذخيرة، ولا سلاح تقيل، ولا ميزانية...

بس صرنا مهمين فجأة."

ردّ عليه أبو سامر، عابسًا:

– "مو مهم نحن ، المهم موقعنا.

الريف الغربي ما بيمشي بلا مضايا. هني بدّن نغطي الثغرة يلي صايرة بين الزبداني وسرغايا."

أبو عبدو تنفّس بقوة:

– "يعني نلتحق؟

نصير تحت أوامر ناس ما منعرف عنهن غير أسماؤن؟"

رفع عاصم عينه، وقال ببطء:

– "منعرف عنهن إنو عم يقاتلوا... ونحنا كمان.

ما طلبوا نبدّل رايتنا، ولا نحط صورة حدا.

طلبوا بس تنسيق، غرفة عمليات، وسطر نثبت فيه إنو رح نوقف مع بعض."

صمت.

أبو عبدو نظر في وجه أبو سامر، وقال بنبرة أكثر صدقًا:

– "أنا مو ضدّ... بس خايف.

خايف نخسر استقلالنا القليل اللي ضلّ.

خايف نصير جزء من شغل ما منعرف نهايته وين."

قال أبو سامر:

– "والعزلة وين نهايتها؟

ننقتل واحد واحد؟

كل مرة، شهيد... وكل مرة، ما حدا بيعرف عننا شي ."

سحب عاصم الورقة من جيبه.

لم يقرأها، فقط وضعها على الطاولة، وقال:

– "هي مو بيعة.

هي نقطة وصل.

إذا النظام عم يجيب مرتزقة من كل مكان... نحنا ما فينا نضل نتحرّك ككتيبة يتيمة.

ما بدنا لا سلاحهم ولا مالهم...

بس بدنا نكون موجودين، لما ينكتب شي عن الحرب... ما ينكتب عن الكل، إلا نحنا."

صمت طويل.

ثم هزّ أبو سامر رأسه، وقال:

– "بس ما منقبل حدا يملي علينا."

أبو العبد أومأ:

– "ومنروح باسمنا، ما منحط لا ألقاب ولا شعارات."

عاصم قال بهدوء:

— "مظبوط...

ومن اليوم، إذا سقطت مضايا، ما بتسقط بصمت."

وقّعوا الورقة.

واحدًا تلو الآخر.

دون هتاف. دون تصفيق.

لكن بقلوب أخفّ بقليل مما كانت عليه قبل الجلسة.

في الخارج، لم يتغيّر شيء.

نفس الطريق، نفس الحواجز.

لكن من الداخل... صاروا يعرفون أن البلدة لم تعد تقاتل وحدها.

قادم من القصير 7 حزيران 2013

مضايا – مدخل البلدة

سقطت القصير في صباح السابع من حزيران، بعد واحد وعشرين يومًا من الحصار، و القصف، والمعارك من مسافة صفر.

قالت الأخبار إن البلدة استُبيحت، وإن ما تبقى من أهلها حوصروا بين الركام والخراب.

لكن مضايا لم تسمع الخبر من التلفاز... بل رأته بعينيها.

في منتصف النهار، ظهر على الطريق القادم من الزبداني متسللا ً رجل واحد.

يمشي ببطء، يجرّ قدمه، وكتفه الأيسر غارق في الدم اليابس.

كان جسده يتمايل كأن كل خطوة هي انتزاع من الموت،

وعيناه لا تبحثان عن شيء... فقط تتفحصان الهواء، كأنه لم يعد آمنًا.

رآه طفل من الحارة، ركض ليخبر أبا سامر:
— "في زلمة جاي من تحت... شكله مضروب!"

اجتمع رجال الحي عند طرف الطريق.
حين اقترب، عرفه عاصم على الفور:
— "هاد خليل... من القصير. كان مقاتل معنا بال-2012، بعدها رجع عضيعتو."

ما إن أجلسوه على كرسي مخلوع أمام الجامع، حتى بدأوا يحاولون فهم ما حصل.

لكنه لم يكن يتحدث بسهولة.
أنفاسه متقطعة، عيناه لا تثبتان، وكأن فمه لم يعد يعرف ترتيب الجمل.

قال أخيرًا، وهو يضع يده على صدره:
— "القصير... ما سقطت. ...القصير اندفنت."

أخرجوا من جسده شظية صغيرة، وعقله كان لا يزال عالقًا في مكان آخر.
قال الطبيب وهو يلف الضماد:
— "هالدم ما بيحكي عن إصابة... بيحكي عن بلد عبينزف."

في الليل، جلس خليل في إحدى غرف المدرسة القديمة.
طلب ماءً، ثم قال بهدوء:

– "نحن ما خسرنا لأنو ما قاتلنا...

خسرنا لأنو ما عرفنا نقدر وحشية النظام للأسف ما فهمنا عدونا منيح .

ما كانوا جيش...ما كانوا سوريين كانوا أقرب للعصابات أو الميليشيات

كانوا لابسين بدلات سودة، وعندن صواريخ بتفجّر حيّ كامل،

، بمثلوا بجثة اللي بيموت وبيتصوروا جنبها وهن عبيضحكوا."

أبو سامر سأله بصوت خافت:

– "من وين كانوا؟"

قال خليل وهو يحدّق في الأرض:

– "ما كانوا من القصير... ولا من الشام.

لهجتن؟ متل لهجة أهل الجنوب...

لكن أسلوبهن؟

ما بيشبه شي منعرفوا.

كانو يقتلوا بدم بارد... بكل حقد وانتقام هي ما كانت حرب أبدا

كانت أقرب للأبادة ما كان بدهن يطلع حدا شاهد ع المجازر الي عملوها ."

صمت.

ثم رفع عينه وقال:

– "نحنا ما كنا عمنقاتل جيش النظام بس ...

كنا محاصَرين من شي أكبر... من رسالة من فكرة:

إنو أي مكان بيحلم بالحرية... مصيره الإبادة."

نام خليل تلك الليلة في المدرسة.

وفي الصباح، استيقظ الناس على فكرة لم تكن لديهم قبل الأمس

أن المعركة تغيّرت.

أن الدم السوري لم يعد يُراق بيد السوريين فقط.

بل تمادى إجرام نظام بشار الأسد إلى جلب الأيادي الأجنبية لقتل

الشعب السوري لم يكن يهمه عدد الضحايا أو كمية الخراب

هدفه هو قمع صوت الحق وإسكات الأحرار عن المطالبة بمحاسبة

الطغاة والمجرمين حتى لو وضع يده بيد الشيطان وتحالف معه

وأن "القصير" لم تكن الوحيدة أبدا ... بل كانت بداية لشيئ أكبر بكثير

ما كان أحد ليتصوره

فارس، حين سمع القصة من أبيه، لم يقل شيئًا.

لكنه ظلّ في غرفته طويلا ً.

ثم كتب في دفترَه:

"خليل لم يأتِ من القصير...

بل من مستقبلنا."

"ليلة بلا استعداد" 7 تموز 2013 – قبل رمضان بيومين

كانت أم سامر تجلس على الأرض، أمام كيس من العدس المتيبّس، تحاول أن تفرزه حبة حبة.

لا شيء حولها يُشبه ما اعتادت عليه قبل كل رمضان.

لا صوت ماء يُغلي، لا وجود لرائحة الأطباق الشهية، المعروك، السوس الفتة ، فوانيس رمضان كلها أصبحت من الذاكرة ... فقط الصمت والهم، وبعض النَقَس الثقيل.

رفعت رأسها ونظرت إلى السقف، ثم قالت بصوت خافت:

– "بتتذكر بالسنين الماضية وقت يجي رمضان ؟

كان بيتنا ما يفضى من الناس أهلي وأهلك والجيران ...

و صوت الجوامع بتسمع لصلاة التراويح

والصغار يلعبوا بالحارة...

حتى نسمات مضايا كانت غير وقت يدخل رمضان

سكتت.

هلأ بتحس الهوا تقيل حامل للموت .. للفقد ..

بزعل على هالصغار بس شو ذنبهم يكبروا بهيك ظروف

بواقع بتصير الكعكة وكاسة الحليب حلم عندهم

سكتت.

ثم ابتسمت دون أن تضحك:

– "اليوم... حطّيت العدس بالزاوية، وخبّيت شوية زيت ورا الفرن.

وباقي جرة الغاز... بقعد بدعي كل ليلة الله يطول بعمرها كم يوم زيادة."

كان أبو سامر واقفا بهدوء.

يحمل قطعة خبز يابسة.

قال:

– "أبو فارس عطاني هاللقمة... قال لقاها تحت الخبّازة، بس لسه بتتاكل ."

أخذت الخبز، وضغطت عليه بأطراف أصابعها.

– قالت:

"كنت طول عمري حضّر لرمضان... حتى وأنا مديونة.

هالسنة؟

أنا ما حضرت حالي... ولا حضرت شي.

أنا بس عم حاول ما أنهار قدام الأولاد."

لما يسألوني شو رح نتسحر أول ليلة برمضان أو أول فطور؟!

رد أبو سامر بإنكسار:

– "والله ما بيطلع بالأيد شي ... الحمدلله ببيتنا مافي إصابة أو مرض دائم بيستدعي العلاج أو الدوا بشكل مستمر متل غير بيوت بالضيعة وكلي الله أم سامر

منحاول نجيب أي شي الله بدبر... منصوم يوم بيوم إن شاء الله

الله بيفرجها علينا برمضان."

صمت ثقيل.

لكن فجأة، انكسر شيء في ملامحها، كأن الذكرى تسلّلت دون إذن.

رفعت نظرها نحوه وقالت:

– "بتتذكر سامر لما يرجع بأول يوم رمضان؟

وقت كان يدخل عالبيت قبل المغرب، وهو عم يقول: "شو طبختيلنا اليوم يا أمّي؟"

وقت كان يعرف إنها شاكرية كان يفرح متل الولاد الصغار، كنت أعملها مشانه."

ابتسمت...بحسرة و بصوت مكسور.

– "كان يدخل، يبوس راسي، وإيدي،

ويقول: الله يعطيك العافية عبتتعبي معنا."

ثم قالتها بصوت منخفض جدًا، لكنها واضحة:

– "الله يرحمو يا رب...

ما في يوم بمرّ علي بدون ما أتذكر صوته بالبيت حركاته طريقة حكيه."

خفض أبو سامر رأسه.

يداه ارتجفتا ، ولم ينبس بكلمة.

ثم قال بصوت خافت:

– "كان يخجلني بحنانه... معي ومع أخواته حتى بآخر مرة ودّعني فيها مع أنو كنا علقانين وضربته بس مع هيك ما قلل ولا مرة من إحترامي ياريتني حاولت أسمعه كان ممكن يكون في فرصة ليعيش ...

أحيانا بحس أنو أنا السبب بموته فعلا أنا ظلمته كتير ."

في الخارج، كانت الحارات ساكنة.

لم يكن هناك سوى ريح تمر عبر البلدة،

تفتّش عن موائد لم تُفرش،

وعن فوانيس لم تُضَأ.

ولا شيء يُنبئ أن رمضان قادم... سوى وجوه الأباء و الأمهات،

الذين بدأوا يهيمون على وجوههم في طرقات البلدة وبيوتها

بحثاً عن شيء يسدون فيه رمق أطفالهم

الله أكبر 8 تموز 2013

جامع مضايا الكبير

كان الغروب خافتًا تلك الليلة، كأن الشمس تودّع الأرض وهي خجلة.

ولم تكن الشوارع مزدحمة كما اعتادت في كل رمضان،

لكن الجامع... بقي واقفًا كأنّه وحده يصرّ على الحياة.

الرجال بدأوا يتوافدون، ببطء، بحذر، بقلوب متعبة،

فقط الأطفال يركضون...

يركضون لأنهم لا يعرفون بعد معنى أن تكون في مكانٍ يمكن أن يُقصف بأي لحظة

داخل الجامع، كان الشيخ مصطفى جالسًا إلى جانب المنبر، يقرأ ما تيسّر من سورة إبراهيم بصوت منخفض.

رجل ستيني، بلحية بيضاء قصيرة، وصوت لا يصرخ... لكنه لا يهادن.

اعتاد أن يبدأ درسه في الأيام الآخيرة قبل كل صلاة تراويح بكلمة بسيطة:

"رمضان هذا... فرصة للنجاة من كل شيء."

وقبل أن يُكمل الآية، سمع من الخارج صوت خفيفًا، غريبًا، لا يُشبه حركة الناس ولا حفيف الهواء.

صفير.

قصير.

حاد.

قادم من الأعلى.

ثم...

صوت، ليس بانفجار.

بل رسالة من النظام، مفادها أن لا صلاة ولا آمان في حضرته هنا.

ضُرب المسجد، لا لخطأ في الإحداثيات... بل محاولة قذرة لإطفاء كلمة "الله أكبر "وترويع قلوب الناس..

قاموا بقصف المئذنة وقت الصلاة في رمضان وهم يعلمون أن الجامع الكبير ممتلئ في هذا الوقت بطريقة وحشية كمن يتحدى الله علانية.

الإنفجار والنار شقت السقف، ثم سقطت الحجارة على أرض المسجد،

تساقطت حجارة المئذنة داخل المسجد،

صار المكان محرابًا للهلع، لا للركوع..

في اللحظة نفسها، تجمّد كل من كان في الداخل.

الذين وصلوا... لم يدخلوا.

والذين لم يصلوا... سقطوا على الأرض.

الشيخ مصطفى؟

لم يتحرك.

سقطت الصخور وبقايا الإنفجار عليه،

فانحنى جسده إلى جانب المنبر،

بينما المصحف سقط من حضنه،

وفتح على آية كانت:

"ولا تحسبنّ الله غافلًا عمّا يعمل الظالمون."

صرخ أحدهم:

– "الشيخ! الشيخ اتصاوب!"

لكن الشيخ، وهو مضرج بالدم و التراب، رفع يده بصعوبة،

وهمس:

–"أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

اللّهمّ إنّكَ قد أريتنا قوّتهم علينا فأرِنا قدرتك عليهم

الله أكبر... الله أكبر "

كان آخر ما سمع منه.

لم يُحمل إلى مستشفى، ولم يُكتب له تقرير وفاة.

لكنه سقط بين آية ودعاء... وهذا يكفي لنعرف من قتله ولماذا.

فوق الركام، ظلّ صوت من المئذنة المهدّمة يرنّ في أذن فارس،

وهو يقف على بعد أمتار، عاجز عن الفهم.

كان الصوت يقول:

"الله أكبر..."

ثم ينقطع.

ثم يعود.

ثم يخفت...

كأن السماء تنذر بهول الفاجعة التي وقعت

وفي الحارة، لم ترفع التراويح تلك الليلة.

ولم يتجرّأ أحد على قول "آمين".

بل سجد كلّ في بيته،

وصمت،

كأنّ البلدة كلها قررت أن تصلي...

من دون صوت.

في قلب الليل... فقط أصوات الدعاء رمضان 2013/1434

مضايا – منازل غارقة في الظلام

لم يكن رمضان هذا العام يشبه أي رمضان مضى.

لا في أذانه، ولا في سحوره، ولا حتى في ساعات الجوع الطويلة.

الخبز قليل، والماء ساخن بشكل لا يروي، والأمّهات يُجبرن أنفسهن على الابتسام حين يفتح الأطفال أيديهم وقت الدعاء.

كان الناس يطبخون ما يتوفّر، لا ما يشتهون.

في بعض البيوت، كانت طنجرة الماء تغلي بلا شيء سوى رشة ملح، فقط لتوهم الأطفال أن شيئًا ما يُطهى.

ليالي رمضان لم تعد تضجّ بصوت المسحّراتي، بل بصفيرٍ بعيدٍ يُشبه نغمة موت قادم.

صار النوم خفيفًا، كأنّ العيون تستأذن الغارات قبل أن تغمض.

وصار الناس يحسبون الساعات لا بين الإفطار والسحور، بل بين لحظة القصف و الهدوء.

وفي زوايا الحارات، كان الرجال يجتمعون بعد المغرب، لا يتبادلون النكات، بل يراجعون أخبار الغارات والمداهمات، كأنها نشرات جوية.

كان من الطبيعي أن تتأخر الصلاة.

أن تصير التراويح في البيوت.

أن يُطفأ نور المآذن، وتُطفأ معه أرواح كثيرة.

في بيت فارس، كانت أمّه تكتفي بصحن عدس، تقطّع الخبز اليابس بأصابعها، وتحاول أن تُشعر فارس أن هذا عادي... وأن الله يرى وسوف ينتقم.

كان أبوه، يجلس أغلب الليل دون حديث، يراقب فتحة صغيرة في الحائط خلف المطبخ، تُطل على حقلٍ لم يَعُد أخضر.

هكذا كان رمضانهم.

رمضان بالحد الأدنى من الضوء، وبالحد الأعلى من الصبر.

حتى وصلت ليلة السابع والعشرين.

قال أحد الشيوخ إنها ليلة القدر... وإن أبواب السماء تُفتح.

لكن السماء هذه الليلة، كانت أثقل من العادة.

لا نجوم فيها، ولا هلال ظاهر... فقط سواد، وجدار يحيط بمضايا من كل الجهات.

في أحد الأقبية، اجتمع الرجال والنساء والصغار.

فرشوا الحصائر، وأطفأوا الفوانيس، وجلسوا في صمتٍ عميق.

الهواء خافت، والرطوبة تُبلل الجدران.

جلس فارس إلى جوار أبيه، متجاورين، لا يتحدثان.

كانت الرؤوس منحنية، والأكفّ مرفوعة، والهمسات تشبه البكاء.

قال الإمام بصوتٍ هادئ أقرب للبكاء:

"الحمدُ للهِ حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، نحمدُه على السراء والضراء، ونؤمنُ به في النور والظلام، ونشهدُ أنه لا إله إلا هو، الرحيمُ في الشدّة، القريبُ في الغربة، السميعُ لدعوة المظلومين.

اللّهم ارحم شهداءنا، من عرفناهم، ومن لم نعرفهم، من دفنّاهم بأيدينا، ومن لم نقدر على دفنهم.

اللّهم وسّع قبورهم، وأنزل عليهم نورك وسكينتك، واجعلهم شفعاء لنا يوم نلقاك.

اللّهم فرّج عن معتقلينا، وفكّ أسر المأسورين، وردّ الغائبين إلى أمهاتهم وأبنائهم،

اللّهم كن لهم في ظلمات السجون، وارزقهم القوة في مواضع الضعف، واليقين في مواضع الخوف.

اللّهم إنك ترى ما يفعلُ بشار وأعوانه، ترى القصفَ والدماءَ والمجازر، وترى الأطفالَ وهم يُرفعون شهداء دون ذنب.

اللّهم لا ترفع له راية، ولا تُحقق له غاية، واجعل تدبيره تدميره، وزلزله في عرشه كما زلزل قلوبَ الآمنين.

اللّهم أرِنا فيهم يومًا يشهد فيه العالم عدلك، وتُشفى فيه صدور قومٍ مظلومين،

اللّهم لا تُبقِ منهم أحدًا إلا سلّطت عليه خوفًا لا ينام، وندمًا لا ينسى، وسيفَ عدلك لا يُرد.

اللّهم لا تجعلهم أقوى منا، بل اجعلنا أقرب إليك منهم."

— "يا رب، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت... فلا تُغلق دوننا بابك."

وضج الناس بالبكاء

فارس رفع يديه.

لم يعرف ماذا يقول.

لكنه قال ما فهمه قلبه:

"يا الله... مو لأننا طيبين...

بس لأننا تعبانين."

كان أبو سامر صامتًا، لكنه يرفع يده بثبات.

وعيناه مغلقتان... كأنه يتكلم في داخله، بصوت لا يسمعه غير الله.

ثم تمتم:

— "إن كنت قد أخذت منّا سامر، فاجعلنا ممن بقوا ليروا كيف يُهزم القاتل."

وللحظة، عمّ المكان سكونٌ ثقيل،

كأن الهواء توقف... كأن الله استجاب دعائهم.

بدأ الناس بالبكاء الشديد.

لكن لم يكن بكاء حزن.

بل بكاء من يعرف أنه ما زال إنسانًا، رغم كل ما انتُزع منه.

في الزاوية، قالت امرأة بصوتٍ مرتجف:

— "اللهم إن لم يكن لنا مكان في هذه الأرض...

فاجعل لنا مكانًا في رحمتك."

وبقي الناس هناك... حتى الفجر.

لا قصف، ولا تحليق، ولا صراخ.

فقط صمت... كأن الله قرر أن يُمهلهم هذه الليلة...

ليدعوا كما لم يفعلوا منذ بدأت الحرب.

عيد على الهامش 1 شوال 1434 – 8 آب 2013

مضايا – صباح يوم العيد

لم يكن صباح العيد.

كان مجرد نهار جديد، شاحب، لا رائحة فيه، ولا صوت.

في الشوارع الضيقة، لم يخرج الناس كما كانوا يفعلون.

لا تكبيرات، ولا زيارات، ولا ضحك.

في البيت، استيقظ فارس متأخرًا، لا لأنه نام مرتاحًا، بل لأنه لم يكن ينتظر شيئًا.

ارتدى قميصًا قديمًا كان لأخيه سامر، قصّ والدُه أكمامه منذ أسابيع، وخاطت أمّه أطرافه بخيط رمادي.

لم يكن قميص عيد... لكنه ما تبقّى.

قال له أبوه:

– "روح شوف رفقاتك... يمكن في حدا نازل يلعب."

سار فارس ببطء في الزقاق، والحجارة تحت قدميه تُصدر صوتًا خافتًا، كأنها تخاف أن تُوقظ شيئًا.

لم يكن ثمة شيء في البلدة يشير إلى أن العيد قد أتى...
لا زينة، لا أهازيج، لا ألبسة جديدة، ولا حتى حلوى.
ورغم ذلك، خرجت الشمس.
ومعها، خرجت من بعض البيوت محاولات متواضعة لتذكر ما يعنيه "العيد".
عند زاوية الجامع المدمر، وجد عمر وعدنان جالسين على برميل مقلوب.
وجوههم باهتة ، متعبة
قال فارس بصوت منخفض:
— "عيدكم مبارك."

أجابه عدنان بابتسامة شاحبة:
— "علينا وعليك... ما ضل حدا يعايد حدا."

جلسوا، لا شيء ليفعلوه.
الكرة كانت ممزقة منذ أسابيع.
الشارع مليء بالحفر.
والهواء يمرّ كمن يزور سجنًا.
قال عمر:
— "بتتذكر لما كنا نركض لهنيك؟
آخر الحارة؟
وكان أبو عماد يعطينا عصير مثلّج بخمس ليرات؟"
ضحكوا.
تابع وهو ينظر إلى الأرض بحسرة
—"ومازن يعلق معه مشان يكترلنا التلج ... ...
الله يرحمك يا مازن"

صمت الجميع بشكل خانق

في أول ساعة من النهار، بدت البلدة وكأنها تحاول أن تنسى.

رجال يجلسون على الأرصفة، نساء ينظفن مداخل البيوت، أطفال يركضون خلف ظلا لهم.

لكن شيئًا ما كان ناقصًا.

ليس فقط الطعام، أو الثياب، أو التكبيرات...

بل الثقة.

لم يعد أحد يثق أن العيد سيمر بسلام.

ثم في منتصف النهار، سُمِع صوت أول غارة.

ثم الثانية.

ثم صوت طائرة.

ثم انفجار في البلدة المجاورة.

ثم بدأت السماء تهدر، ليس كعيد، بل كحرب لم تسترح.

الناس لم تصرخ...

بل أسرعوا إلى الداخل، كمن يعود إلى مقبرة فيها أمان أكثر من الشوارع.

في بيت أم عدنان، توقفت تجهيزات الفطور.

النسوة جمعن أطفالهن تحت الدرج،

وأغلقت الأبواب كأن أحدًا يجرّ وراءه سنوات من الذكريات.

الغارات لم تكن على مضايا وحدها.

من الراديو المهترئ، سمع فارس أن حي الحجر الأسود في دمشق استُهدف بصاروخ فراغي.

في المزة بدمشق، ألغيت خطبة العيد.

وفي داريا، سقطت قذيفة على باب أحد المساجد وقت صلاة العيد.

ثم تبعها وابل من القذائف على البلدة

وفي دوما، لم تُصلّ صلاة العيد أصلا ً.

في حلب، لم يُسمح للناس بالخروج من أحيائهم.

في درعا، مات طفل تحت الأنقاض بعد أن اشترى حذاءه الجديد بيوم واحد.

في مضايا، قررت العائلات ألا تزور أحدًا.

صارت التهاني تُقال من خلف الأبواب.

وصارت عبارة "كل عام وأنتم بخير" تُقال وكأنها:

"أتمنى أن لا يصيبكم الدور اليوم."

في المساء، عاد فارس إلى البيت.

جلس على العتبة، حدّق في السماء السوداء.

قال لأمه:

— "ما شفت حدا لابس جديد... حتى أنا نسيت شكل التياب الجديدة."

ردّت أمه بصوت خافت:

— "معلش فارس فترة وبتمر أن شاء الله ومنرجع نعيد وتشتري الي بدك ياه ... المهم انو نضل عايشين ونطلع من هالحرب ...مابدي أخسر حدا تاني"

ثم صمت الجميع.

في الخارج، ظلّ العيد يمرّ من الزقاق، لا يحيّي أحدًا، ولا يترك شيئًا.

في تلك الليلة، كتب فارس في دفتره:

"كان العيد يجي ومعه الفرح وأصوات الضحكات ...

هالسنة، ما سمعنا إلا الطيارات.

كأن الله عطانا يوم إجازة... بس نحن نسينا شو كنا نعمل فيه."

ليلة بلا صوت... ولا هواء 21 آب 2013

الساعة 2:30 بعد منتصف الليل

ريف دمشق – من الغوطة إلى مضايا

لم يكن في الغوطة ما يوحي بشيء مختلف تلك الليلة.

الناس ناموا مبكرًا، بعد عشاء بسيط،

وصلاةٍ مستعجلة،

وعيونهم معلقة بسماء لم تعد تهطل سوى الرعب.

البلدات هادئة: زملكا، عين ترما، جوبر، عربين، كفر بطنا.

هدوء غريب، ثقيل، من النوع الذي يسبق المصيبة

وفي مضايا، حيث كانت العيون تسهر بقلق على البعيد والقريب،

كان أبو سامر جالسًا قرب اللاسلكي،

وفارس نائم على الأرض بثيابه، كما ينام الأطفال حين يتعبون من الأسئلة.

في الثانية والنصف بعد منتصف الليل...

بدأ كل شيء.

لكن لم يكن هناك انفجار.

لم يكن هناك ضوء.

لم يكن هناك صوت طائرات.

فقط، موتٌ ينزل من السماء مثل بخارٍ شفاف.

في الغوطة، استيقظ الناس فجأة.

ليس على صوت، بل على إحساس...

الهواء اختنق.

الصدور ضاقت.

الأجساد بدأت ترتجف دون سبب.

أطفال بدأوا يلهثون.

نساء سقطن في الممرات.

رجال فقدوا الوعي وهم يحملون أبناءهم.

ثم... سكون.

لكن ليس سكون الراحة.

بل سكون النهاية.

في مضايا، لم يكن القصف مسموعًا،

لكن اللاسلكي بدأ يصرخ.

— "غاز... غاز سام... ما قادرين نتنفس... الأطفال عم يموتوا عالسجاد، ما في شي! ما في جرح، بس عم يموتوا!"

ثم انقطعت الإشارة.

ثم عادت.

— "بشار الأسد استخدم الكيماوي... الغوطة عم تختنق!"

أم فارس ركضت بهلع إلى الشباك،

ثم إلى ولديها،

ثم جلست على الأرض، تمسك رأسها وتهمس:

– "شو ضل لسه ؟ يا الله حتى اليهود ما عملوا هيك !"

أبو سامر قال بصوتٍ لم يعرف عنه من قبل:

– "هاد مو قصف... هاد قرار.

قرار يقتل أكبر عدد من أهل الشام، وهم نايمين."

وفي أماكن أخرى من الغوطة،

كان أكثر من ألف إنسان يموتون بهدوء.

نساء لم يصرخن،

أطفال ماتوا على وسائدهم،

رجال ماتوا وهم يحاولون حمل جثث أولادهم...

فماتوا فوقها.

ممرض في أحد المشافي الميدانية قال:

– "دخلوا علينا بالعشرات... عيونهم مفتوحة، بس ما عم يشوفوا...

حاولنا نغسّل وجوههم... حاولنا نعمل أي شي... بس ما كان في شي ينفع."

شاب في زملكا وقف فوق جثة أخته،

وقال للكاميرا وهو يصرخ و يبكي:

– "هي كانت نايمة... ماتت وما صحيت... لك شو ذنبها هي يا الله .. حدا يفهمني بس"

رجل خرج إلى الشارع يحمل طفلته... لم يكن يعرف أنها قد ماتت.

ظلّ يركض بها، وينادي:

– "تنفّسي يا بابا... بس نفس واحد الله يوفقك."

ثم وقع...

ومات وهو يضغط على صدرها بكفّ واحدة

في مشفى كفر بطنا الميداني،

كانت الأرض مليئة بأجساد لا جروح فيها.

فقط أعين مفتوحة، أفواه متيبّسة، وأجساد تنكمش، كأنّها ترفض ما دخل رئتيها.

قال المراسل في الفيديو وهو يصرخ :

"ما عم نلحق نعد الجثث...

مئات... الأطفال... نساء...شيوخ

جوبر، زملكا، عين ترما، كفر بطنا...

هي مو مجزرة...

هي ابادة جماعية!"

– عند الفجر – خارج الجامع المهدّم

كان الشيخ حسن، إمام المسجد القديم في مضايا، قد وقف على حجرة مكسورة من بقايا المئذنة.

وجهه شاحب، صوته متقطع، وصدره يعلو ويهبط كأنّه يحمل ثقل مئات الموتى.

رفع يده المرتجفة، ثم نادى بصوتٍ أقرب للبكاء منه للهتاف:

— "الله أكبر... الله أكبر...

الله أكبر على من قتل الأطفال وهم نيام... الله أكبر على من نشر السمّ في الهواء...

الله أكبر على من لا يخاف الله... ولا خلقه."

كانت عيونه تدمع، وكان صوته يرتجف وهو يهمس:

— "لا تخرجوا من بيوتكم... إلزموا أطفالكم...

ما في ضمان، ما في أمان، ما في شي بيحميكم... إلا دعاءكم وربكم."

ثم سكت لحظة... وغصّ بكلمة ما خرجت.

وقال وهو يكاد ينهار:

— "اليوم... الهواء صار قاتل.

اليوم... حتى النفس صار بدّو إذن.

استودعوا أولادكم لله... واستودعوا نفسكم."

ورفع يديه، وقال بصوتٍ خافت:

— "يا الله... ما عاد فينا نتحمّل...

ارحمنا، قبل ما يصير الهوا علينا حرام."

وبكى.

والناس بكت.

لكن ما من أحد صرخ.

كان البكاء كأنه صلاة لا صوت لها.

الأنباء بدأت تتسرّب بعد ساعات...

من جوبر، إلى عربين، إلى زملكا...

التوثيقات تخرج بالعشرات.

1119 مدنيًا اختنقوا.

منهم 99 طفلًا، و94 امرأة.

1144 قتيلًا في المجمل.

أكثر من 600 مصاب، لا يعرفون إذا كانوا سينجون... أم فقط سيموتون ببطء.

لاحقًا، وُثّق كل شيء.

الصور، التسجيلات، الشهادات.

التقارير قالت:

"النظام استخدم السارين عمدًا، لقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين، نساءً وأطفالًا، وهم

نائمون.”

المسؤول: بشار الأسد، القائد الأعلى للجيش.

لكن الحقيقة لم تكن بحاجة لتقارير.

كانت مرئية...

في أعين الأمهات،

في جثث لا دم فيها،

في أطفال ماتوا وهم يمسكون ألعابهم...

وفي هواء لا يزال يذكر السوريين إلى اليوم، أن التنفّس لم يعد حقًا.

"ما بعد المجزرة... لا شيء كما كان"

أواخر آب 2013 – بعد أيام من مجزرة الكيماوي

مضايا – البلدة المتروكة بين القهر والصمت

لم يكن أحد يتحدث.

الأيام تمرّ، لكن الأصوات قلّت، والوجوه تغيّرت

الناس تمشي كأنها تعبر أرضًا غريبة،

كل شيء فيها متشابه

البيوت، الصمت، الوجوه، وحتى الأيام..

صار الصباح يشبه الليل، والليل بلا معنى.

الناس ما عادوا يسألوا "شو صار؟"... صاروا يسألوا: "شو رح يصير لسه؟"

فارس خرج من بيته بخطى بطيئة.

مرّ بجانب المحل اللي كان يبيع الشاي والسكاكر...

مغلق.

مرّ من الحارة اللي كان يسمع فيها لعب الأولاد...

فارغة.

كان يحمل ورقة صغيرة كتب فيها كلمات متقطعة...

لم يكن يعلم إذا كان يكتب دفتر يومياته، أو إن كان يدوّن نعي البلد كله.

في الساحة الصغيرة، وقف شاب اسمه "عدنان" – كان ناشطًا سابقًا.

يحمل ورقة محروقة بيده.

فارس سأله:

— "شو عم تعمل؟"

عدنان ابتسم بسخرية، وقال:

— "عم بعمل إعادة ترتيب أوراق...

أصدقاء سوريا، والجامعة العربية، والأمم المتحدة... خلص، خلص دورهم."

ورمى الورقة بنار صغيرة، وقال:

— "نحنا لحالنا، يا زلمة.

الناس برا عم تحكي عن الكيماوي،

ونحنا هون... حتى الهوا خايفين نتنفسه."

عاد فارس إلى البيت، فوجد أباه جالسًا أمام طاولة قديمة، يكتب أرقامًا في دفتر.

خرائط، ملاحظات، أسماء.

لم يسأل. لكن نظره كان يقول كل شيء.

أخيرًا، قال:

– "عم تكتب شي عن الكيماوي؟"

أجابه أبوه دون أن يرفع عينه:

– "ما بكتب عنو... بكتب من بعدو.. عبوثق آثاره ...."

دخلت أم فارس، وضعت كوب ماء على الطاولة، همست:

– "أبو فادي باع كل شي وعم يدبّر طريقة يهرب فيا... قال ما عاد يضلّ يوم واحد بعد المجزرة."

رفع أبو سامر رأسه وقال:

– "معو حق ما بيطلع بأيده غير هيك ما حدا رح يلومه"

سكتت قليلا ثم أكمل:

"بس اللي شاف اللي صار، وضلّ ساكت... هاد صار شريك بالجريمة."

قال فارس:

– "وانتو؟ شو رح تعملوا؟"

أبوه ما جاوبه فورًا.

نظر للورقة، ثم قال:

– "من هون ورايح... ما عاد في شي اسمه انتظار.

اللي عم يصير... بيقول إنو نحن لازم نقرر ، مارح نستنى حدا."

وفي الخارج، صوت مذيع باهت، يقول من على بطارية نصف مشحونة:

"واشنطن وموسكو تواصلان المفاوضات لنزع السلاح الكيماوي السوري..."

ضحك أحد الجيران بصوت عالٍ، من وراء الحائط،

وقال بسخرية سُمعت رغم المسافة:

— "شو هالعدالة؟

نزع سلاحه مشان ما يعيدها... مو محاسبته على إنه عملها."

أغلق أبو سامر الدفتر.

وقف.

نظر إلى فارس وقال بهدوء:

— "تغيّرنا... كلنا تغيّرنا بعد هالمدبحة اللي صارت.

فارس شعر بشيئ داخله يخنقه،

كأن العالم كله صار أضيق من صدره.

قام بهدوء، إلى الزاوية،

فتح دفتره، وكتب:

"بعد المجزرة... .

العالم سكّت.

حتى الحيطان... بطّلت تردّ الصدى."

وفي الخارج،

مرّت طائرة فوق البلدة،

لكن لم يخرج لها أحد.

ليس لأنهم لم يسمعوها...

ربما لأنهم إعتادوا الصوت أو أسوء... قتلهم الخذلان

"خطوط متقاطعة"

أواخر آب 2013 - مضايا - مقر قيادة كتيبة مضايا الأولى

كان الظلام قد حلّ على مضايا بشكل كامل. في بيت حجري قديم على أطراف البلدة، اجتمع القادة العسكريون بعيداً عن أعين الناس وبعيداً عن أي مصدر ضوء قد يجذب انتباه الطائرات.

جلسوا على الأرض في شكل دائرة، تتوسطهم خريطة ممزقة وبعض الأوراق وبقايا شموع. ضوء باهت من مصباح يدوي كان ينير وجوههم المتعبة، بينما تركت أسلحتهم جانباً في زاوية الغرفة.

عاصم، قائد كتيبة مضايا الأولى، كان ينظر إلى وجوه الرجال الستة حوله واحداً تلو الآ خر. كان صامتاً، لكن نظراته تتكلم نيابة عن لسانه. بجانبه، جلس أبو سامر، يداه مشدودتان كأنهما تحتضنان شيئاً ثقيلا ً.

"بضعة أيام..." قال عاصم أخيراً، "بضعة أيام مرّت على مجزرة الكيماوي، وكأننا نعيش في قبر."

تنهّد أبو العبد، أحد قادة المجموعات الفرعية، وقال بصوت متهدج:

"ألف ومية شهيد في الغوطة... ألف ومية! والعالم واقف يتفرج."

"مو بس واقف يتفرج،" قاطعه أبو حسن بحدة، "عم يحكي عن نزع الكيماوي من

النظام بس! مارح يتحاكم ع الضربة!"

سادت لحظة صمت ثقيل، قبل أن يتكلم أبو سامر:

"نحن هون مشان نقرر شو بدنا نعمل، مو مشان نلوم العالم. العالم ما رح يخلصنا... ولا حتى أصدقاء سوريا، ولا حتى الائتلاف."

"شو تقترح؟" سأل عاصم، وهو ينظر إليه مباشرة.

نظر أبو سامر إلى الخريطة، ثم قال بثبات:

"الرد يكون بعملية نوعية. مو انتقام أعمى. نختار هدف عسكري مؤثر... حاجز استراتيجي، مقر عمليات، نقطة تجمع للقوات."

نهض أبو هاشم فجأة، وكان من أصغر القادة سناً وأكثرهم حدّة:

"نوعية؟! بعد الكيماوي بدك عملية نوعية؟! هاد كلام فاضي! لازم نرد بقوة... نقصف المطار بالهاون، نستهدف كل حاجز، نخلي أهل المنطقة يعرفوا إنو عنا كرامة!"

"وشو النتيجة؟" رد أبو سامر بهدوء. "براميل متفجرة على حارات سكنية؟ أطفال تحت الأنقاض؟"

"أنا مع رأي أبو هاشم،" تدخل رجل ملتحٍ يدعى خالد العبسي، كان معروفاً بارتباطه بإحدى الكتائب الإسلامية. "الرد بقوة هو الحل... هيك بنرفع معنويات العالم، وبنقول للنظام إنو ما رح نسكت."

نظر أبو سامر إلى عاصم، ثم قال:

"هي مو معركة معنويات... هاي معركة وجود. إذا خسرنا المدنيين، خسرنا كلشي."

"المدنيين؟" ضحك العبسي بمرارة. "لك المدنيين عم يموتوا من سنتين، وإنت لسه بتفكر كيف تحميهم؟ ما ضل شي نخسره!"

وقف أبو سامر، ووضع إصبعه على نقطة في الخريطة.

"هون... مقر عمليات الفرقة التاسعة. عنده سجل بكل العمليات بالمنطقة، ومنه طلعت أوامر قصف الجوامع. هاد الهدف بيستاهل نخاطر عليه بالذخيرة القليلة يلي عنا."

"وبدك توصله كيف؟" سأل أبو العبد. "الطريق مكشوف، والنقاط عم تزيد."

"في طريق فرعي من وادي بردى..." قال أبو سامر، "الطريق القديم."

تدخل الشيخ عطا، وهو رجل في الخمسينيات، لم يكن من القادة العسكريين، لكنه كان من وجهاء البلدة وداعم للمقاومة:

"أنا بقول غير هيك... الكيماوي علامة. سقطت كل الخطوط الحمراء. بشار مستعد يمحي البلد، وما ظنّكم حزب الله أقل منه."

صمت الجميع ينصتون، فأكمل الشيخ:

"اللي بدي قوله، إنو خطتنا لازم تتغير. قبل الكيماوي في شي، بعد الكيماوي في شي تاني... بعد هالمجزرة، لازم نفكر كيف نحمي الناس من المجازر الجاية. الناس بحاجة يحسوا بالأمان قبل الانتقام."

"يعني شو؟ نسلم البلد؟" صرخ أبو هاشم.

"لا... ما نسلم البلد،" هز الشيخ رأسه. "بس نأمن المدنيين. نفتح طرق إخلاء. نكون مستعدين لأي سيناريو... وبعدها منضرب."

وقف العبسي وقال بنبرة فيها تحدٍ:

"كلامكم كتير حلو... بس إحنا عنّا رجال بدهم يستشهدوا. بدهم ينتقموا. وإذا ما سمحتولهم، رح يتصرفوا لحالهم."

التفت إليه عاصم، وعيناه كصقر:

"ما حدا بيتصرف لحاله... فهمت؟ نحنا هون عيلة وحدة، وما في مجال للانشقاق. أي حدا بيفكر يتصرف لحاله، معناها خان أهل مضايا."

"هاد تهديد؟" سأله العبسي، وصوته بارد.

"هي حقيقة،" رد عاصم. "مضايا صارلها سنتين عم تقاوم. وإحنا عم نقاوم كفصيل واحد. وهيك رح نضل."

أخذ أبو سامر نفساً عميقاً، ثم قال:

"عندي فكرة... نعمل عملية مزدوجة. قسم يضرب المقر، بسرعة ودقة. والقسم التاني يؤمّن خط رجعة، ويجهز نقاط دفاع حول البلدة. حتى إذا جاء الرد، نكون مستعدين."

نظر عاصم إلى الجميع، ثم قال:

"هيك منجمع بين الرأيين. منرد، بس بعقل، ومنحمي البلدة."

في الزاوية البعيدة من الغرفة، كان فارس مختبئاً خلف باب موارب. لم يكن أحد قد لا حظ وجوده، ولكنه سمع كل كلمة. جاء ليبحث عن والده بعد أن انتظره ساعات، ليجده في هذا الاجتماع المتوتر.

مع انتهاء الاجتماع، انسحب فارس بهدوء إلى الخارج، وقلبه يخفق بقوة. لأول مرة، يدرك أن المعركة ليست فقط ضد النظام، بل ربما بين الذين يقاومونه أيضاً. أدرك أن انفجار الكيماوي الذي هز الغوطة قبل أيام، كان يمكن أن يهز الثورة نفسها.

في الطريق العائد، عبر الأزقة المظلمة، لمح فارس مجموعة من الرجال الملثمين يتسللون بين البيوت. أحدهم كان يحمل راية سوداء، والآخر صندوقاً ثقيلاً. لم يكونوا من رجال أبيه، ولا من كتيبة مضايا التي ألفها.

عندما وصل إلى البيت، وجد أمه تنتظر عند الباب كالظل.

"شو في فارس؟ وين كنت؟" سألته بقلق.

لم يجب فارس. أخرج دفتره، وكتب بخط مرتجف:

"قبل الكيماوي، كان في عدو واحد... هلق صعب تعرف مين ضدك ومين معك. هاد أخطر من القصف."

"الحصار الصامت"

أوائل أيلول 2013 - مضايا

استيقظ فارس على صوت المطر الخفيف يقرع نافذة غرفته الصغيرة. كان الصباح رمادياً، والسماء تبدو كسقف من الغيوم. منذ أسبوعين، بعد مجزرة الكيماوي، بدا أن السماء نفسها تحاول غسل ذكرى ما حدث، لكن المطر لم يكن كافياً.

توجه نحو المطبخ، حيث كانت أمه تقف أمام الموقد المطفأ. كانت تحدق في أسطوانة الغاز الفارغة، وتقلب بين يديها علبة كبريت كأنها تقرأ فيها شيئاً.

"صباح الخير أمي ،" قال فارس وهو يحاول ألا يُظهر قلقه.

التفتت إليه، ورسمت ابتسامة سريعة على وجهها المتعب. "صباح النور حبيبي."

"أبوي... وين ؟" سأل فارس وهو يتطلع إلى الخارج.

"طلع بكير... قلي بدو يلحق أبو عدنان، وبعدين يروح عالمدرسة القديمة."

"المدرسة؟" استغرب فارس، "ليش؟"

لم تُجب أمه، لكنها همست: "ما بعرف... قال فيه اجتماع مهم. روح شوف أختك، ف يقها."

مضى فارس لإيقاظ ليلى، وأخذ معه دفتره. جلس قرب النافذة ينظر إلى الشارع الموحل بعد المطر. البلدة بدت هادئة بشكل غير طبيعي. وكتب في دفتره:

"أربعاء، 4 أيلول 2013. البلد صايرة هادية كتير... بس مو هدوء الراحة. هدوء متل الموت. صار في رجال غريبة عالحواجز. مبارح، توقف خبز المعونة. قالوا الشحنة القادمة ممنوعة من العبور."

توقف فارس عن الكتابة حينما سمع أصواتاً قادمة من الشارع. نظر من خلال النافذة فرأى عدداً من الرجال يتجمعون عند الزاوية. كانوا يتحدثون بهدوء، لكن أيديهم تتحرك بعصبية. أحدهم كان يحمل راديو صغيراً، ويرفع صوته من وقت لآخر.

بعد أن أيقظ ليلى، وضع لها قميصاً نظيفاً وسروالا ً، وأحضر لها قطعة خبز يابسة من

المخبأ الذي خصصته أمه لطعام الأيام القادمة.

"وين ماما؟" سألت ليلى بصوت ناعس.

"راحت تدور ع الماي... الخزان خالص فاضي."

خرج فارس بحذر إلى الشارع، ومشى نحو مجموعة الرجال عند الزاوية. وقف على مسافة تسمح له بالاستماع دون أن يلفت الانتباه.

كان أبو محمود، وهو سائق شاحنة قديم، يتكلم بصوت متوتر: "الحاجز الكبير عند الجسر ما عاد يسمح للسيارات تمرق... حتى سيارات الإسعاف."

رفع رجل آخر يُدعى سمير صوت الراديو بينما كان المراسل يقول:

"قوات الجيش السوري وحزب الله تحكمان السيطرة على بلدات القلمون الاستراتيجية. مصادر تؤكد مقتل قائد ميداني ينتمي إلى أحدى أكبر المجموعات الإرهابية في معارك النبك، فيما تدور اشتباكات عنيفة في جرود يبرود..."

"هي مو صدفة،" قال سمير وهو يخفض صوت الراديو، "بعد كل اللي صار بالغوطة، النظام بيجهّز لحملة كبيرة. عم يلف حوالينا..."

فجأة، لاحظوا وجود فارس. صمتوا جميعاً.

أبو محمود ابتسم له، وقال: "صباح الخير يا بطل... وين أبوك؟"

"راح عالمدرسة القديمة...في اجتماع،" أجاب فارس.

تبادل الرجال نظرات، ثم قال سمير: "روح عند أبوك... قلو بدنا نحكي معو."

انطلق فارس مسرعاً نحو المدرسة القديمة في الطرف الآخر من البلدة. المدرسة كانت مهجورة منذ أكثر من سنة بعد أن أصيب جناحها الشمالي بقذيفة هاون في خريف 2012. صارت منذ ذلك الحين مركزاً سرياً للاجتماعات، وأحياناً مستودعاً مؤقتاً للذخيرة.

عندما اقترب من المدرسة، رأى سيارة دفع رباعي مغبرة متوقفة في الخلف، وبضعة رجال يقفون حولها، يحملون أسلحتهم ويراقبون المكان بحذر. لم يكونوا من أهل مضايا.

تسلّل فارس من فتحة في السياج المتهالك، ودخل المبنى من الخلف، عبر نافذة مهدمة. كان يعرف كل ممر وكل زاوية في المدرسة؛ فقد قضى فيها ثلاث سنوات قبل أن تبدأ الثورة.

في الصف الذي كان مخصصاً للغة العربية، كان ثمة اجتماع. تحلّق حوالي خمسة عشر رجلا ً حول طاولة مصنوعة من باب قديم وضع على فتحة صرف المياه. كان أبو سامر هناك، إلى جانب عاصم وأبو العبد. هناك أيضاً وجوه غريبة، رجال لم يرهم فارس من قبل، بلباس عسكري وبعضهم بعمامات.

وقف فارس خلف الباب مستمعاً.

رجل ضخم بلكنة غريبة كان يقول: "الطريق بين الزبداني ودمشق زي ما انت شايف، ممنوع نهائياً..."

"وطريق بلودان؟" سأل أبو العبد.

أجابه الرجل: "بضائع معينة بس... وبتصريح. مثلا ً: دواء، طحين، بنزين، مستحيل."

أبو سامر هز رأسه بتوتر:

"يعني عم تقول إنو النظام قرر يخنق المنطقة كلها؟"

"مو النظام لحالو،" أجابه رجل ملتح، يبدو أنه قيادي قادم من الخارج. "الأمر صار أكبر. الحرس الثوري الإيراني عم يدير المعركة بشكل مباشر. مجزرة الكيماوي خلتهم يوسعوا تدخلهم. حزب الله صار ماسك الحواجز الرئيسية. هدول مو متل عناصر النظام... مافي رشوة معهم، ولا واسطة."

"شو قصدك؟" سأل عاصم.

"قصدي إنو المنطقة كلها - من الزبداني لمضايا لسرغايا - رح تنحط تحت حصار. حصار حقيقي هالمرة. كل الصور اللي شفتوها من حمص، رح تشوفوها هون."

عندما خرج من المدرسة، كان فارس يشعر بضيق في صدره. ركض عائداً إلى منطقة السوق، حيث بدأ الناس يتجمعون بأعداد أكبر. كان الخبر قد انتشر، ولو بشكل غامض وناقص.

عند المخبز القديم، كانت هناك طوابير طويلة. اصطف المئات أمام صندوق الدقيق الذي وصل بالأمس. كانت إيمان، زوجة الخباز، توزع أرغفة صغيرة، لكل عائلة رغيفان. ومن بعيد، لمح فارس أمه واقفة في الطابور، تنتظر مع عشرات النسوة.

توجه فارس إلى السوق المركزي، حيث كان باعة الخضار يغلقون محلاتهم ويخفون البضائع. أبو نزار، بائع الخضار الأقدم في البلدة، كان يفرغ أكياس البطاطا والبصل بسرعة في صندوق خشبي ويضعه تحت العربة.

"عمو أبو نزار... ليش عم تسكر؟" سأله فارس.

"الوضع مو تمام يا عمو،" أجابه أبو نزار بصوت منخفض. "بياعين الخضرة من الغوطة قالولي الطرقات انسكرت، وأسعار الضهر غير أسعار الصبح."

"يعني شو؟"

"يعني الخوف يا ابني،" قال وهو ينظر حوله بتوجس. "من بعد الكيماوي، صار النظام يفكر بشكل مختلف. ما عاد عندو خطوط حمراء."

ثم أضاف بصوت أخفت:

"رفيقي أبو خليل من سرغايا حكالي إنو حزب الله أخذ أهم مفرق على طريق بيروت. أول مرة بيسيطرو على نقطة رئيسية من دون النظام. ومن هالنقطة بتمر كل المواد الأ ساسية: الطحين، البنزين، الغاز..."

"شو يعني هادا؟" سأل فارس، وقد بدأ يشعر بخوف غامض من إجابة لم تصله بعد.

أغلق أبو نزار الصندوق، وقال: "يعني دقّ ناقوس الخطر... خبّي كل شي بتقدر عليه. شو ما صار، لازم تكون مستعد."

عندما عاد فارس إلى البيت، وجد أباه واقفاً أمام الباب. كان نظره شارداً، لكن وجهه كان أكثر صرامة مما رآه طوال الأشهر الماضية.

"كنت عبتدوّر علي؟" سأله أبو سامر.

"إي... في ناس عند الزاوية بدهم يحكوا معك."

نظر أبو سامر نحو الأفق، وقال بصوت خافت:

"تعال معي شوي."

مشيا معاً إلى طرف الحارة، حيث صعدا إلى سطح بيت مهجور. كان المكان مرتفعاً بمايكفي لرؤية معظم أطراف مضايا. أشار أبو سامر نحو الأفق:

"شايف هديك النقطة البيضة عالتلة؟ هديك نقطة المراقبة الجديدة للحزب."

تطلع فارس في الاتجاه الذي أشار إليه والده. على بعد كيلومترين تقريباً، كان هناك برج صغير مستحدث، وعليه علم.

"ومن هنيك... لهونيك،" أشار أبوه بيده في حركة نصف دائرية، "صارت المنطقة كلها تحت مراقبتهم."

"يعني شو رح يصير هلأ؟" سأل فارس.

تنهد أبو سامر، ثم وضع يده على كتف ابنه وقال:

"مشان هيك جبتك... بدي قلك قبل ما تسمع من حدا. الحصار بدأ. قبل شوي، منعوا الطحين من الدخول. بكرا رح يمنعوا الدواء... الغاز... البنزين... كل شي. الشي إلي ما م نقدر نستغني عنه رح يصير ممنوع."

صمت فارس، مستوعباً كلام أبيه.

"كيف... كيف رح نعيش؟" سأل أخيراً.

"متل ناس حمص القديمة. متل ناس الحجر الأسود ومخيم اليرموك. رح نعيش على اللي عنا... ...

لوقت الله يفرجها أما منتحرر من الحصار أو ...."

لم يُكمل الجملة، لكن فارس فهم معناها.

في طريق العودة إلى البيت، رأى فارس الناس يتحركون بسرعة في الشوارع. رجال يحملون أكياساً. نساء يتبادلن أواني طهي. عربات تنقل مواد من مكان لآخر. بدا الأمر كخلية نحل تستعد لشتاء قادم.

في المساء، اجتمعت العائلة حول الطاولة. أبو سامر كان قد خرج ثانية، واصطحب معه رجلين آخرين في مهمة لم يخبر عنها أحداً.

قالت أم فارس وهي تضع صحناً من العدس المطبوخ:

"من بكرا، لازم نغير عاداتنا... الأكل، الماي، الكهربا... كل شي رح يكون على قد الحال."

نظرت ليلى بارتباك: "ليش ماما؟"

أجابت أمها: "لأنو الطرقات اتسكرت يا حبيبتي. بس ما تخافي... رح ندبّر حالنا. متل ما تدبرناها من قبل."

قبل النوم، جلس فارس عند النافذة مرة أخرى. فتح دفتره، وكتب:

"5 أيلول 2013. اليوم، صار الحصار حقيقي. الحزب صار ع التلال، واتفقوا مع النظام

على خنق مضايا. سمعت أبو العبد يقول إنو حتى الشجر رح يمنعوا قطفه. وين رح نصير؟ وين الناس بالغوطة، وبحمص، وبحلب؟ كيف عايشين؟ أبوي قلي لازم نخبي الأ كل والمي. الشتا جاي، والإشاعات كتيرة. الكهربا انقطعت. الماي ما عاد تنزل بالخزانات. والخوف... الخوف صار أكبر من البيوت."

أغلق دفتره، ونظر إلى السماء. لم يكن يرى نجوماً هذه الليلة، فقط سواد معلّق فوق بلدة تبدأ رحلتها مع الحصار.

"شتاء على عتبة الحصار"

منتصف تشرين الثاني 2013 - مضايا

تساقطت ندف الثلج الأولى على مضايا في صباح قارس البرودة. لم تكن تكفي لتغطي الأرض، لكنها كانت تذكيراً بأن الشتاء وصل، وكان أول شتاء يعرفه فارس تحت الحصار.

شهران مرّا منذ أن أعلن أبوه بداية الحصار الحقيقي. شهران غيّرا وجه البلدة ووجوه الناس معها.

وقف فارس على السطح المكشوف، مرتدياً معطفاً بالياً ورثه من ملابس أخيه سامر. كان يساعد أباه في تثبيت ألواح من الخشب والنايلون فوق فجوة في سقف البيت نجمت عن قذيفة سقطت قرب الحي قبل فترة.

"هات المسمار الكبير،" طلب أبو سامر وهو يحاول تثبيت لوح خشب مستخرج من سرير قديم.

ناوله فارس المسمار ووقف يراقب أباه يعمل. كان أبو سامر ينحف يوماً بعد يوم، وتظهر التجاعيد على وجهه أكثر فأكثر. يداه اللتان كانتا قويتين تبدوان الآن مرتجفتين قليلاً.

"بكفي هيك؟" سأل أبو سامر بعد أن ثبّت اللوح الأخير.

"ممتاز..." أجاب فارس، "ما عاد في فتحة للمي."

أثناء نزولهما من السطح، لمح فارس طابوراً طويلا ً يتشكل عند النقطة الطبية. كان موعد توزيع حصص الدواء. وقرب المخبز القديم، كان العشرات يقفون بانتظار خروج ا لأرغفة الصغيرة المخبوزة من طحين الشعير المختلط بالشوائب.

"بابا..." قال فارس وهما يعودان إلى البيت، "أيمت بيخلص الحصار؟"

نظر إليه أبو سامر بعينين متعبتين، ثم قال: " قريباً إن شاء الله يا فارس. بس الحرب صارت الها قواعد جديدة."

في المطبخ، كانت الأم تقف أمام طنجرة صغيرة على موقد يعمل على الخشب. كانت مادة الطهي هي "السلق" - نبات بري كانت النساء يجمعنه من أطراف البلدة، بعيداً عن أعين القناصة. أما الحطب، فكان من خشب الأشجار المثمرة التي قطعت من البساتين القريبة.

"ما جبتوا الدقة من عند أم نزار؟" سألتهم وهي تقلب المحتويات الخضراء في الطنجرة.

"نسينا..." أجاب فارس.

"روح جيبها... اليوم آخر يوم إلها. بكرا بتسكر، قالت رح تروح على قرية بني جمع عند قرايبها."

خرج فارس مسرعاً نحو بيت أم نزار، وهي عجوز كانت تصنع "الدقة" - خليط من البهارات المطحونة مع القليل من الملح والسمسم. كان لديها بعض بذور الكزبرة و الكمون التي ادّخرتها، وكانت تطحنها في الهون لتبيعها للعائلات القليلة التي مازالت تملك بعض المال.

في الطريق، مرّ فارس بجوار "الموتور" - مولد كهرباء كان قد استقدمه بعض الشباب من شاحنة محترقة على طريق الزبداني. استطاعوا إصلاحه، وكان يعمل ساعة في المساء مقابل بعض المال أو الطعام. وقف فارس قليلا ً يراقب وليد، وهو شاب في العشرين من عمره، وهو يعبئ بقايا البنزين من علبة صغيرة إلى خزان المولد.

"بدك تشغلوه اليوم؟" سأله فارس.

"إذا الله راد..." أجاب وليد بابتسامة متعبة، "البنزين اللي عنا ما بيكفي غير نص ساعة، بس خليناه لآخر الليل كرمال يقدروا الناس يشحنوا تلفوناتهم، أو يشوفوا الأخبار."

تابع فارس طريقه،

وصل إلى بيت أم نزار، وطرق الباب برفق. من الداخل، سمع صوتها الضعيف تقول: "تفضل."

كان المنزل صغيراً ومعتماً، رائحة البهارات تملؤه. أم نزار، السبعينية، كانت جالسة على وسادة قديمة على الأرض، وأمامها هاون حجري وصحن كبير مليء بخليط من البذور البنية والصفراء.

"أهلا حبيبي..." قالت بابتسامة كشفت عن أسنانها المتباعدة، "أمك بدها دقة؟"

"إي خالتي..." أجاب فارس، "قالت هاد آخر يوم."

"صح... بكرا رح سافر مع ابن أختي. جايي ياخدني عقرية بني جمع، عندي هنيك قرايب. مضايا رح تصير صعبة بالشتا..."

"بس وين بدك تطلعي؟" سأل فارس، "الحواجز مانعة الخروج."

"في طريق جبلي..." أجابت وهي تضع القليل من الدقة في كيس صغير. "طريق ترابي مافي عليه نقاط. بس طالعة مرعوبة يا ابني... قلبي تعبان، والطريق وعرة، بس أحسن ما أموت جوعانة هون."

أعطت فارس الكيس، وأخذت منه بعض العملات المعدنية الصغيرة، ثم قالت: "يا ريت عندي شي زيادة أعطيك ياه، بس خلص كل شي... هي آخر شوية عندي."

قبل أن يغادر، سألها: "خالتي... أيمت رجعتي من الحج؟"

ابتسمت بفرح خفيف: "من 12 سنة يا ابني... 2001. أحلى أيام العمر. ليش بتسأل؟"

"مو مشان شي ..." أجاب فارس، "فيكي تدعيلنا اذا رجعتي ع الحج ؟"

ضمّته أم نزار بقوة، وهمست في أذنه: "ما تخاف يا ابني... هاد الحصار رح يخلص قريباً إن شاء الله"

عندما وصل فارس إلى البيت، كان أبوه قد رحل مرة أخرى. في معظم الأيام، كان يغيب ساعات طويلة، يتنقل بين نقاط المراقبة في أطراف البلدة، أو ينسق مع الكتيبة التي صار دورها الأساسي مراقبة الوضع والحفاظ على ما تبقى من تماسك المجتمع.

"تعال ساعدني،" قالت أم فارس وهي تحمل سلة صغيرة.

في غرفة النوم، أخرجت الأم عدة قطع من الملابس الصوفية القديمة، وبدأت بقصها بمقص صغير.

"شو عبتساوي؟" سألها فارس.

"جوارب... للشتا بقص كنزة سميكة كانت لسامر لأعمل جرابات هدول بخففوا شوي من البرد."

كانت الجوارب التي ترتديها العائلة قد تهرأت تماماً، ولم تعد المحلات تبيع شيئاً من هذا النوع منذ أشهر. فكرت الأم بتقطيع الملابس الشتوية القديمة واستخدام خيوطها لحياكة جوارب وقفازات لليلى وفارس.

"ليش ما بنشتري جديد؟" سألت ليلى وهي تراقب أمها تفك خيوط الكنزة بصبر.

"لأنو ما في محلات مفتوحة يا حبيبتي..." أجابت الأم بابتسامة باهتة. "والناس اللي عندهم تياب، صاروا يبيعوها بسعر غالي... خلصوا المصاري الي معنا."

بعد العشاء، الذي كان عبارة عن طبق السلق وبعض الخبز اليابس، جلس فارس يكتب في دفتره تحت ضوء شمعة صغيرة. كان المصباح الزيتي الوحيد في البيت قد ثقل إلى غرفة ليلى، التي كانت مريضة بنزلة برد.

كتب فارس:

"15 تشرين الثاني 2013. الثلج بدأ ينزل اليوم. البرد صار يقطع العظم في الليل. أبوي حاول يسكر الشباك المكسور، بس ما عاد في شرشف فاضي بالبيت. أمي قصت كنزة سامر الصوفية وصارت تعمل منها جوارب وقفازات. قالت إذا قصّيناها بالعرض، برتفع

أكتر.

الناس بلشت تهرب. أم نزار رح تروح بكرا مع ابن أختها. حطت دقة بكياس صغير وباعتها النا. الدقة بيخلي الطعم أحسن، حتى لو ما كان في لحم أو زيت. قلت لأبوي نجمع حطب للشتا. قال 'شباب المراقبة عبيقولوا مانعين الناس يدخلوا عالبساتين، حتى الحطب منعوه'. كنت فكر: إذا منعونا من كل شي، شلون بدنا نعيش؟ ما بعرف شو السبب. ليش بدهم يخلونا نموت جوعانين وبردانين؟"

في تلك الليلة، لم تعمل المولدات، فقد نفد الوقود الذي كان عند وليد. نامت البلدة مبكراً في ظلام دامس، مغطاة بطبقة رقيقة من ثلج بدأ يتساقط بكثافة أكبر مع منتصف الليل.

استيقظ فارس على أصوات صياح. كانت الساعة قرابة السابعة صباحاً، لكن الضوء كان شحيحاً في الخارج بسبب الغيوم الكثيفة. انتفض من فراشه، وركض إلى النافذة.

في الشارع، كان بعض الرجال يركضون باتجاه أطراف البلدة. أحدهم حمل بندقية قديمة، وآخر مجرفة. سمع صوت أم عدنان تصرخ من بعيد: "الحقوهن! تحت التلج!"

ارتدى فارس ملابسه على عجل، وانطلق إلى الخارج. كان البرد قارساً، والثلج يغطي الأ رض بطبقة بيضاء سميكة. عند نهاية الزقاق، رأى حشداً من أهل الحارة، وبينهم أبو سامر.

"شو صار؟" سأل فارس وهو يلهث.

"مجموعة من الضيعة حاولوا يطلعوا الصبح بكير ..." أجابه الجار، "طريق جبلي، بمر بوادي صغير. الثلج كان غطى معالم الطريق، واحد من الشباب داس على لغم أرضي."

"يا إلهي..." تمتم فارس، "مين هنن؟"

"عيلة أبو عبدو... كانوا طالعين أربعة أشخاص، معهم أم نزار."

لم ينتظر فارس لسماع المزيد. ركض باتجاه الصراخ، متبعاً مجموعة الرجال الذين خرجوا للمساعدة. على بعد كيلومتر من البلدة، عند سفح التلة الشرقية، تجمع العشرات حول المشهد الفاجع.

كان أحمد، ابن أبو عبدو الأكبر، ممدداً على الأرض، وساقه اليمنى مهشمة تماماً. بجانبه، كان ابن أخت أم نزار، شاب في الثلاثينيات، فاقداً للوعي ووجهه مغطى بالدماء. أما أم نزار نفسها، فكانت ملقاة بعيداً، هامدة لا تتحرك، وسط الثلج الأحمر.

كان الشبان يحاولون حمل المصابين بواسطة بطانيات قديمة. ممرض شاب كان يحاول وقف نزيف ساق أحمد، بينما نادى آخرون: "سيارة إسعاف! نحتاج سيارة إسعاف!"

لكن الجميع كان يعلم أن سيارات الإسعاف التي كانت في مضايا قد نفد وقودها منذ أسابيع. اثنتان منها تحولتا إلى خردة بفعل القصف، والثالثة مركونة بلا حراك عند المركز الطبي، تنتظر قطرات بنزين قد لا تأتي أبداً.

وسط الفوضى، سمع فارس صوت أبيه:

"ما بدنا سيارة إسعاف... بدنا همتكم! يا الله شدوا حيلكم!"

كان أبو سامر يعطي الأوامر بسرعة. أرسل أحدهم للمركز الطبي كي يجهزوا ما أمكن من إسعافات أولية. أمر آخرين بحمل أحمد على بطانية مثبتة على عصيّتين طويلتين.

لكن عندما وصلوا إلى أم نزار، كان الشبان قد توقفوا عن محاولة حملها. وضع أحدهم أذنه على صدرها، ثم هز رأسه بحزن.

"الله يرحمها..." تمتم أبو سامر، وتمتمت النسوة الواقفات بالقرآن.

عندما حمل الرجال أحمد وصديقه المصاب باتجاه البلدة، بقيت أم نزار وحيدة على الثلج. نظر فارس إلى أبيه بعينين دامعتين: "ما منقدر نتركها هون..."

"رح نرجع إلها يا ابني... بس هلأ لازم ننقذ الأحياء."

تراجع الرجال بسرعة، حاملين المصابَين باتجاه النقطة الطبية. كان أحمد يئن بصوت خافت، بينما اللون الأحمر يملأ الثلج الأبيض تحته. في تلك اللحظة، دوّت ثلاث طلقات متتالية من اتجاه التلة.

"قناص!" صرخ أحدهم. "انبطحوا!"

ارتمى الجميع على الأرض، تاركين أحمد على الحافة. سقطت طلقة رابعة بالقرب منهم، أثارت غباراً من الثلج. كان القناص البعيد قد رصد حركتهم، واتخذ منهم أهدافاً سهلة على الثلج الأبيض.

"ما بدهم يتركونا حتى ندفن موتانا..." همس أبو سامر بغضب.

"شو بدنا نعمل؟" سأل أحد الشبان.

فكّر أبو سامر لحظة، ثم قال: "أنتوا خذوا أحمد على المركز الطبي. أنا وفارس واتنين من الشباب رح نسحب أم نزار لورا بأمان."

"انت مجنون؟!" قال أحدهم. "القناص رح يصطادنا!"

"ما منقدر نتركها!" صاح فارس. "أم نزار حجت على بيت الله... ما بيجوز تموت ويأكلوها السباع!"

تمتم الشاب بالشهادة، ثم قال: "طيب... رح آجي معك."

كان الموت يحوم في الهواء البارد، وكانت الطلقات تدوي متقطعة من بعيد. لكن ثلاثة من شباب البلدة، منهم فارس، استغلوا غطاء الثلج والأشجار المتناثرة، وانسحبوا ببطء وحذر نحو جثة أم نزار.

عند وصولهم، كانت العجوز قد تيبست في البرد. سقط الثلج على وجهها، فبدت كأنها نائمة تحت غطاء أبيض. حملها الشبان بسرعة على بطانية، وبدأوا انسحاباً سريعاً نحو البلدة.

الطلقات تابعت الدوي خلفهم، لكنها لم تصب أحداً. وصلوا إلى أول بيوت مضايا، حيث أخذ منهم رجال آخرون الجثة ليحضروها للدفن.

عندما عادوا إلى البلدة، كان الضجيج قد ازداد حول المركز الطبي. أحمد، الذي فقد كمية كبيرة من الدم، كان يصارع الموت. الطبيب الوحيد في البلدة، وهو طالب طب لم يكمل تخصصه، كان يحاول إنقاذ ساقه دون مخدر كافٍ أو أدوات معقمة.

مر اليوم ثقيلا كالرصاص. العائلات اجتمعت في بيوتها، تحكي قصة أم نزار، وكيف ماتت وهي تحاول الهرب من الحصار. وكيف منع القناص الناس من انتشال جثتها لساعات.

في الليل، بعد أن عاد من الدفن، جلس أبو سامر صامتاً في زاوية الغرفة. كان متعباً بشكل غير مسبوق، وعيناه محمرتان.

"ليش عبيعملوا هيك فينا يا بابا؟" سأل فارس، وصوته يرتجف من البكاء المكبوت. "شو عملنالهم؟"

نظر إليه أبو سامر طويلا، ثم قال: "هنن ما بيفهموا غير بالقوة و القمع و الخوف. نحن بنظرهم إرهابيين. أو خونة. أو مجرد ناس ما بيستاهلوا يعيشوا. بيفكروا إذا جوعونا و موّتونا، الثورة رح تنتهي."

"ورح تنتهي؟"

أبو سامر هز رأسه: "ما رح تنتهي. الثورات ما بتموت يا ابني. بس الناس... الناس هي إلي بتموت."

بعد أن نام الجميع، جلس فارس يكتب في دفتره الذي أصبح رفيقه الوحيد:

"16 تشرين الثاني 2013. اليوم، مات الحلم عند أم نزار. كانت هربانة من الحصار، بس الثلج والألغام كانوا أسرع منها. ابن أخت أم نزار وأحمد، ما زالوا بالمستشفى. الدكتور حاول ينقذ رجل أحمد، بس ما عندو تخدير ولا أدوية. قال ممكن تتعفن ويضطر يقطعها.

هاد الشتا مو عادي. شتا بدون تدفئة... بدون دوا... بدون أكل. الثلج يلي كنا نلعب فيه من سنة، صار قاتل اليوم. بيت جارنا أبو خالد اتهدم من تقل الثلج، ما كان قادر يصلح السقف من أول الحصار. أمي قالتلي بصوت واطي: 'هاد الشتا رح ياخد كتير مننا'.

مابعرف ليش منعونا من كل شي. حتى الحطب، حتى الماء، حتى الموتى منعونا ندفنهم. أبوي قال: 'بيفكروا هيك رح نستسلم'. بس أنا شفت بعيونو شي تاني... شفت الخوف."

أغلق فارس دفتره، وعاد إلى فراشه الذي كان أكثر برودة من قبر أم نزار. في الخارج، كان الثلج ما زال يتساقط بكثافة، يغطي البلدة التي بدأت تعرف طعم الجوع وبرودة الحصار.

"شتاء القلوب"

كانون الأول 2013 - مضايا

تجمدت الأرض تحت وطأة الصقيع، وانقبضت القلوب مع اشتداد الحصار. كان فارس يقف أمام نافذة غرفته، يتابع بنظراته الشاردة خطوط الضباب المتصاعدة من بيوت البلدة القليلة التي ما زالت تدفأ. الدخان الرمادي يتصاعد بتثاقل، ثم يذوب في السماء الملبدة.

في الحارة، مر أطفال يجرون حطباً على عربة خشبية مهترئة. وعلى بعد أمتار، كان رجل مسن ينحني على الأرض، يلتقط أعقاب السجائر المرمية، ليعيد لفها ويبيعها بليرات قليلة.

انتبه فارس لصوت أمه خلفه. وقفت عند باب الغرفة، ووضعت صرة صغيرة على الأ رض. كانت ترتدي معطفها البني ووشاحاً صوفياً قديماً.

"أنا رايحة عند خالتك... بدي وديلها شوية دوا. أنت انتبه على ليلى لوقت ما يرجع أبوك."

"ماشي," همس فارس دون أن يلتفت.

"إذا جعت، في شوية مجدرة بالطنجرة عالرف."

كان يراقب من النافذة خروج أمه من البوابة. مشيتها صارت بطيئة، ساقاها تكادان تعجزان عن حملها. فكر فارس: كيف تحولت أمه القوية، التي كانت تحمله وتركض به

حين كان صغيراً، إلى هذا الظل المتثاقل؟ لم يكن الأمر فقط بسبب انخفاض وزنها نتيجة الجوع، بل هناك شيء أثقل استقر على كتفيها.

دخل إلى غرفة ليلى الصغيرة. كانت نائمة تحت غطاء سميك من الصوف القديم، مصنوع من عدة بطانيات خيطتهم أمهم معاً. أنفاسها ترسم بخاراً في البرد، وخدودها حمراء وشاحبة في آن واحد.

جلس قربها ولمس جبينها. كانت محمومة منذ ثلاثة أيام، تتناول الدواء المسحوق الذي أعطاها إياه الممرض محمود بعد تخفيفه بنسبة النصف لأن المخزون بدأ ينفد.

"ليلى..."

فتحت عينيها ببطء. كانتا محمرتين ودامعتين.

"بدك مي؟" سألها.

هزت رأسها بنعم صغيرة. أحضر لها فارس كوباً من الماء البارد، فشربته ببطء شديد، ثم سألته بصوت خافت:

"اليوم الجمعة؟"

"لأ، الأربعاء... خليكي متغطية، رح تكوني أحسن بكرا إن شاء الله."

"بابا أيمت رح يجي؟"

شعر فارس بألم حاد في صدره. كانت ليلى تتعلق بحضور أبيها كلما اشتد عليها المرض.

"قريباً إن شاء الله... هو راح يجيب دوا."

لمع بريق أمل في عينيها، فعاد وغطاها بعناية ووعدها أن يحضر لها بعض الشاي

في المطبخ، وجد فارس بقايا خشب كان أبوه قد جمعه في الأمس من باب خزانة قديمة كسرها للتدفئة. أشعل في الموقد الصغير ناراً خفيفة وبدأ بغلي الماء.

طرقٌ على الباب أجفل فارس. لم يكن أحد يزور البيوت هذه الأيام إلا الأخبار السيئة. فتح الباب بحذر، ليجد عمر، صديق طفولته، واقفاً أمامه. كان وجهه أصفر وعظام خديه بارزة، وتحت عينيه هالات سوداء.

"عمر! تفضل..."

"لأ، ما بقدر طول. أبوي مستنيني، بس هي بعتتلكم ياها أمي."

مد عمر يده بكيس بلاستيكي صغير. في داخله، كان هناك مرطبان صغير فيه شيء يشبه العسل.

"هاد... دبس توت. أمي عملته من آخر شوية توت بالبستان قبل الحصار. قالت هاد مناسب لليلى، بيساعدها عالبرد."

شعر فارس بالدمع يحرق عينيه. كان يعرف أن أم عمر نفسها مريضة، وأن العائلة تعاني مثلهم.

"الله يخليلك ياها... بس كيف عرفتوا إنو ليلى مريضة؟"

"بنت خالتكم حكت لأمي. بتعرف ضيعة يعني، ما في شي بيخفى."

أخذ فارس المرطبان الثمين، وأراد أن يشكر عمر بهدية مماثلة، لكن ماذا يقدم؟ ماذا بقي في البيت سوى البرد والحاجة؟

"استنى شوي..." قال فارس فجأة.

دخل إلى غرفته وأخرج من تحت الوسادة دفتره القديم. تصفح صفحاته بسرعة، وانتزع آخر صفحة فارغة فيه. ثم فتح درج المكتب، واستخرج قلم رصاص مهترئاً.

عاد إلى عمر، ودس في يده الورقة والقلم.

"خدهن لإخوتك الصغار... قلهن يرسموا، رح يتسلوا شوي بهالبرد ..."

ابتسم عمر ابتسامة شاحبة ثم قال: "تذكرت أنو إلك فترة بتكتب... دائماً شايل دفترك بأيدك. شو عم تكتب فيه؟"

تردد فارس: "بكتب يوميات... عن كل شي عم يصير."

"ليش؟"

"مشان ما حدا ينسى."

أومأ عمر برأسه: "معك حق ... كل الناس عم تنسى، أصلا... عم يتذكروا بس وين في أكل."

ودّع عمر صديقه واختفى في البرد. وضع فارس مرطبان العسل في كوب الشاي المرقرق، وحمله بحذر إلى ليلى.

أعاد فارس إشعال النار بعناية، محافظاً على كل قطعة خشب. كانت شعلتها الصغيرة

تنير الغرفة المعتمة بوهج ضئيل، تنعكس ظلاله على الجدران كأشباح ترقص ببطء.

الباب الخارجي انفتح ودخل أبوه. كان مغطى بالثلج من رأسه إلى قدميه، وفي يده كيس صغير. انتفض قليلا ليزيح الثلج، وجلس قرب النار يدفئ يديه.

"فيك تحط شوية خشب زيادة؟"

"هاد آخر شي عنا..."

تنهد أبو سامر: "معك حق، ياريت يكفينا هالليلة بس."

أمسك الكيس وناوله لفارس: "شوف، هاد نصيبنا من الدفعة اليوم."

فتح فارس الكيس، كان فيه كيلو من الشعير غير المطحون، وبضع حبات من البطاطا المتغضنة.

"هاد كل شي؟" همس فارس بذهول.

"إي..." هز أبو سامر رأسه. "الحصة انخفضت لكل العالم... ما بقي شي في المستودع."

"وكيف رح نطحنه؟"

"بحجر، متل ما صارت كل العالم تعمل. من بكرا لازم نخبّي شوية طحين للأيام الجاية."

صمت فارس قليلا، ثم سأل: "بابا... صحيح في أمل نطلع من هالحصار؟"

نظر إليه أبو سامر طويلا، ثم قال بصدق: "مافي شي اسمه يأس يا ابني... دائماً في أمل، مهما كان صغير. هلق نحنا بأصعب الظروف، بس إن شاء الله بتتحسن الأمور."

عيون فارس لمعت: "بابا، ليلى مريضة كتير... الدوا اللي جبته المرة الماضية مابكفي."

سكت أبو سامر قليلا ً، ثم قال: "رح دبر شي... في عندي فكرة."

عاد فارس إلى غرفته ليتأكد أن ليلى ما زالت نائمة. فتح دفتره وكتب:

"20 كانون الأول 2013. هل هناك أمل حقيقي؟ الناس في البلدة صاروا مثل الأشباح. يمشون ببطء، كأنهم لا يريدون استهلاك طاقة زائدة. الجوع صار عادة، والمرض صار رفيقاً. ليلى ضعيفة جداً، وأمي تبكي في الليل عندما تظن أننا نيام.

أبي قال أنه بدأ يسمع أخباراً عن قوات النظام تعلن فيها أنها ستسمح بإدخال المساعدات قريباً. لكن الكل سمع هذا الكلام من قبل. وعود... ثم لا شيء. حتى الأمم المتحدة صامتة. هل يعرفون أننا هنا؟ هل يرون أن ثمانية آلاف إنسان محبوسون في بلدة صغيرة، بلا طعام، بلا دواء، بلا أمل؟"

في اليوم التالي، كانت السماء صافية بشكل غريب. لأول مرة منذ أسابيع، تغلغلت أشعة الشمس عبر السحب، فانعكست على الثلج المتراكم فوق سطوح المنازل، وغمرت البلدة بضوء ساطع، متناقض مع ألم سكانها.

استيقظت ليلى بحال أفضل قليلا، وكانت حمّاها قد خفت. مدّت يدها الصغيرة إلى فارس الذي كان نائماً بجانبها، وهمست:

"فارس... فارس... قوم! الشمس طلعت!"

الابتسامة التي رسمتها ليلى على وجهها أيقظت فارس فجأة. كانت عيناها تلمعان بفرح طفولي، وقد نسيَت للحظات مرضها والحصار والجوع.

"صح! الشمس طلعت ... الحمد لله على كل حال."

أمسك بيدها، وقادها إلى الغرفة الرئيسية. أمهما خرجت من المطبخ، مرتدية ثياباً أنظف من المعتاد، ومبتسمة ابتسامة لم يرها فارس منذ زمن.

"الحمد لله عالسلامة يا بنتي... شكلك أحسن اليوم."

"وين بابا؟" سألت ليلى.

"راح يجيب لك مفاجأة... شوي وبيرجع."

فُتح الباب، ودخل أبو سامر. كان في يده كيس صغير، وابتسامة على وجه أنهكه الإ رهاق.

"شو هاد بابا؟" سألت ليلى بفضول.

أعطاها أبوها الكيس: "افتحيه."

ببطء، فتحت ليلى الكيس. بداخله، كانت دمية صغيرة مصنوعة من القماش، ملفوفة بخرق ملونة. كان رأسها زراً كبيراً، وعيناها مرسومتين بقلم أسود، وشعرها خيوطاً صفراء.

"لعبة!" قالت ليلى وهي تضم الدمية، "، شكراً كتيرا!"

لم يدر فارس من أين أتى أبوه بهذه الهدية، ولا من صنعها. ربما كان هناك في مضايا المحاصرة من ما زال يصنع الأمل من لا شيء.

"ما تشكريني يا حبيبتي... أم حسين اللي عملتها. قلتلها إنك مريضة، قالت هي رح تعمل لعبة خصوصي إلك مشان تفرحي وتصحي."

شعر فارس بشيء يلسع عينيه. أباه الذي كان قبل سنتين ضابطاً مهيباً في الجيش، و الذي تحول بعدها إلى قائد كتيبة في الثورة، كان يسعى الآن من بيت إلى بيت ليجد هدية صغيرة تفرح ابنته المريضة. كم من الرجولة في هذا التعب!

جلسوا حول الطاولة الصغيرة، التي غطتها أمهم بقطعة قماش نظيفة. وضعت عليها خبزاً من طحين الشعير المخلوط بقليل من السكر المخبأ للأيام الصعبة. كان الطعام بسيطاً: شوربة عدس مخفف وبعض الملح.

تناولوا الطعام ببطء، متذوقين كل لقمة، كأنها آخر وجبة في العالم. شربوا بعدها الشاي المحلى بالقليل من العسل الذي أعطته أم عمر لليلى.

في الخارج، كانت البلدة هادئة. أطفال يركضون بثيابهم البالية، يلعبون بالثلج ويضحكون. عائلات تتزاور، تحمل ما توفر من طعام. ربما كان ضوء الشمس بعد أيام الظلام قد أعطى الناس قليلا من الأمل.

بعد الظهر، ذهب أبو سامر وفارس في زيارة قصيرة لبعض الجيران. حملوا معهم بعض التمر المتبقي الذي ادخرته الأم للأيام الصعبة. كانت قطعاً صغيرة جداً، لكنها كانت تعني الكثير لمن يتلقاها.

في بيت أبو محمود، كان الرجل مستلقياً على فراش أرضي، يعاني من ألم في المعدة منذ أيام. لم يكن لديه دواء، فقط كمادات ماء ساخن يضعها ابنه على بطنه.

"السلام عليكم أبو محمود," قال أبو سامر وهو يمد يده لمصافحته.

"وعليكم السلام... اهلين أبو سامر. كيف العيلة؟"

"الحمد لله... كلنا بخير. وانت؟"

"الدنيا ماشية... يا هلا والله!" أجاب الرجل وهو يحاول رسم ابتسامة على وجهه المتعب.

جلس أبو سامر قرب صديقه، وتحدثا طويلاً. من عند الباب، سمع فارس والده يقول:

"في أمل... وصلتنا أخبار إنو الأمم المتحدة عم تحاول تدخل قافلة مساعدات قريباً."

"متل المرة الفايتة؟" ضحك أبو محمود بسخرية. "تطلع وعود وبس؟"

"لأ، المرة هاي جدّية... في مخزون بالكامل تحت إشراف الصليب الأحمر. وصلني إنو في ضغط دولي."

"ضغط دولي..." كرر أبو محمود الكلمات بصوت مختنق. "يعني السماح بكيس قمح وحبتين دياباميد... بسموها مساعدات، وبيقولوا عملنا اللي علينا..."

سكت أبو سامر، لم يكن لديه ما يرد به.

زاروا بيتين آخرين، وفي كل مرة، كان الحديث نفسه: الجوع، البرد، المرض، والأمل الواهي بقافلة مساعدات لن تأتي.

عند العودة إلى البيت، وقف فارس وأبوه أمام الجامع. كان مُقفلا ً، فقد استشهد الإ مام في القصف الأخير، ولم يكن هناك من يتطوع لإقامة الصلاة. أمام بابه، تجمع بعض الأطفال يلعبون في الثلج. كانت أصواتهم مرتفعة رغم الجوع والتعب.

قال أبو سامر بصوت حزين: "حتى صوت الآذان فقدناه..."

عندما عادا إلى البيت، كان الظلام قد بدأ يحل. وضعت أم فارس شمعة صغيرة لتنير الغرفة، وجلست مع ليلى ترسمان على الورق.

"شوفوا شو عملنا!" صاحت ليلى عندما رأتهما يدخلان.

رفعت ورقة رسمت عليها بيتاً ملوناً، وعائلة من أربعة أشخاص، واقفين تحت شمس ضخمة صفراء.

"حلوة؟" سألت، وعيناها تلمعان بانتظار الإجابة.

"أحلى رسمة بالعالم!" قال أبو سامر وهو يحملها ويدور بها في الغرفة.

ضحكت ليلى ضحكة صافية، ربما لأول مرة منذ أشهر. ضحكة طفلة نسيت للحظة أن العالم خارج البيت يتهاوى.

وعندما حل الليل، ونامت ليلى، جلس فارس يكتب في دفتره:

"25 كانون الأول 2013. اليوم، كان مختلفاً عن كل الأيام السابقة. أبي جلب هدية لليلى، وأمي قدمت لنا كل ما استطاعت توفيره من طعام. اليوم، حاولنا صنع الفرح من العدم. لكن خارج بيتنا، ما زال الموت يتربص. الجيران يموتون ببطء من الجوع، أو من البرد، أو من المرض.

أبي قال إن هناك أمل بوصول مساعدات، لكنني رأيت في عينيه أنه لا يصدق ذلك تماماً. بات يقول أشياء ليست حقيقية، ليشعرنا بالأمان. هل نحن حقاً آمنون؟ هل ستأتي المساعدات؟ أم أننا سنبقى هنا، ننتظر الموت، واحداً تلو الآخر؟

ليلى رسمت بيتاً تحت شمس... لم ترسم الثلج، ولا الجدران المحطمة، ولا الجيران الجوعى. ربما هذا ما نحتاجه الآن: أن نرسم عالماً آخر، بينما ننتظر انتهاء هذا العالم."

أغلق دفتره، ووضعه تحت وسادته. أطفأ الشمعة، وأغمض عينيه ليرى الشمس التي رسمتها ليلى. عالم آخر، بعيد عن الحصار، عن الجوع، عن الموت.

عالم ربما لن يأتي أبداً.

"أول موت بالجوع"

كانون الثاني 2014 – مضايا

كان صباحًا باردًا، السماء ملبّدة بالغيوم، والأرض غارقة بطين ثقيل بعد ذوبان الثلج. وقف فارس بجانب أخته الصغيرة ليلى في طابور طويل أمام المخبز القديم. الجميع ينتظرون الخبز، لكن هذا الصباح بدا مختلفًا: لا صوت لطاحونة، ولا دخان يتصاعد من المدخنة.

تبادل الواقفون همسات مرتجفة، والوجوه مرسومة بالإعياء والقلق:

– "بيقولوا ما عاد في طحين... الحصار عم يخنقنا أكتر."

– "يمكن الشاحنة اتأخرت."

– "شاحنات؟! نحنا محاصَرين... ما عاد في شي يجي ولا يروح."

شدّت ليلى على يد فارس، صوتها ضعيف يكاد يتكسر:

– "أنا جوعانة... يا فارس."

ابتسم محاولًا أن يزرع في قلبها طمأنينة لا يملكها:

– "اصبري شوي... يمكن يجي الخبز."

لكن قلبه كان يعرف أن لا شيء سيأتي.

اقترب منهم الأب، أبو سامر، بملامح جامدة وصوت خافت:

– "لا تعلقوا آمال كبيرة... الوضع صار خانق."

لم يرد فارس، فقط خفض رأسه، كأن الكلمات سقطت عليه أثقل من الحجر.

في تلك اللحظة شقّ صمت الطابور رجل يركض مذعورًا، وجهه مصفر وصوته مبحوح:

– "طفل... مات بالنقطة الطبية... مات من الجوع!"

تجمّد الواقفون، كأن الزمن توقف. ارتفعت أصوات مرتعشة:

– "مين؟!"

– "علاء... ابن أبو خالد."

انتشر الذهول بين الناس. بعض النساء شهقن وغطّين وجوههن بأطراف أثوابهن، بينما شدّ الرجال على قبضاتهم بصمت. التفت فارس إلى ليلى وهمس:

– "ولد... متلنا... مات لأنه جاع."

رفعت عينيها المرتجفتين وقالت:

– "مو معقول... الجوع بيقتل؟"

مرّت ساعات قبل أن يشق الصمت مشهد الجنازة. جسد علاء الصغير ملفوف ببطانية قديمة، يحمله أبوه على كتفه، ملامحه متحجرة من الألم. خلفه كانت أم علاء تمشي وهي تبكي وتصرخ بصوت يشقّ الحارة:

– "شو ذنبو؟! ابني شو ذنبو؟!"

وقف فارس عند باب بيته، يراقب الجنازة تمر. أحس قلبه ينضغط حتى كاد ينفجر. لم يعد الموت رصاصة أو قذيفة... صار خبزًا غائبًا يسرق الحياة ببطء أشد إيلامًا.

...

في المساء اجتمعوا في الغرفة الصغيرة، حول موقد بلا نار. حاولت الأم أن تمنح ليلى شيئًا من الدفء بكوب ماء فاتر. عاد أبو سامر متأخرًا، جلس طويلا ً بصمت، ثم قال بصوت خافت كأنه يختبئ من الحقيقة:

– "لا تخافوا... يمكن بكرا تدخل مساعدات."

لم يعلق أحد. فارس كان يراقب عيني أبيه المحمرتين، ورأى فيهما شيئًا أثقل من الكلا م: أمل ضعيف، يخاف أن يولد.

...

تحت ضوء شمعة صغيرة، فتح فارس دفتره وكتب:

"10 كانون الثاني 2014. مات اليوم علاء، أول طفل يسقط جوعًا في مضايا. حمله أبوه على كتفه كأنه لا يزال حيًا، وأمه تصرخ باسمنا جميعًا. أمي تبكي بصمت، وأبي يحاول يزرع أملًا بكلمات فارغة. الحصار اليوم لم يعد جوعًا فقط... صار عدّاد موت، يخطّ أسماءنا واحدًا واحدًا."

"الطفل الذي اختفى"

13كانون الثاني 2014 – مضايا

لم تكن الحارة في ذلك الصباح تشبه نفسها. الريح الباردة تزفر من بين الأزقة الضيقة، تنشر معها رائحة طين وبقايا حطب محترق. الناس يتحركون بخطوات مثقلة، كأن الأ رض تمسك بأقدامهم. فارس كان يقف عند باب البيت، ينظر إلى الطريق الخالي، حين دوّى فجأة صراخ امرأة يخرق الصمت:

– "ابنييي... ابني وينو؟!"

خرج الجيران من بيوتهم مذعورين. كانت أم سامي تركض في منتصف الحارة، شعرها مبعثر، ويديها ترتجفان وهي تضرب على صدرها. اقتربت النسوة منها، حاولن تهدئتها. قالت إحداهن:

– "شو صاير يا أم سامي؟"

صرخت وهي تلهث:

– "سامي... راح من الفجر... قال بدي لاقي شي آكله... ما رجع! دورت بكل محل، ما لقيتوا!"

ساد الوجوم، وتبادل الرجال نظرات قلقة. قال رجل مسن وهو يهز رأسه:

– "الله يستر... الولد صغير، والبرد قاتل."

الأم ارتفعت نبرتها، صوتها مبحوح:

– "رح يموت... جوعان وبردان... لحالو!"

أحس فارس برعدة تسري في جسده. التفت إلى أبيه، أبو سامر، الذي وقف عند عتبة البيت. أشار له والده برأسه وقال بصوت ثابت:

– "روح مع الرجال... دوروا عليه."

...

انقسموا مجموعات صغيرة. كان فارس مع اثنين من شباب الحارة، يتفحصون الخرائب ، الزوايا المظلمة، أطراف البساتين اليابسة. الريح كانت تصفر في أذنه، والبرد يقرص وجنتيه. صرخ أحد الرجال بصوت عال:

– "سامي! سامي! وينك يا ابني؟!"

لكن الصدى ارتدّ من الجبال بلا جواب.

شاب آخر تمتم بخوف:

– "يمكن راح صوب الحاجز... الله يستر."

ردّ عليه الثاني:

– "لا... سامي بيعرف الدروب. يمكن تعب ووقع."

قلب فارس كان يخفق بجنون، وعيناه تبحثان في كل زاوية. فجأة، لمح عند سور قديم

جسدًا صغيرًا مرميًا على الأرض. ركض نحوه، فإذا هو سامي، ممددًا، عيناه نصف مغمضتين، شفتاه متشققتان.

جلس فارس على ركبتيه، همس وهو يمد يده:

– "سامي! سامي... فيق!"

تحركت أصابع الطفل ببطء. رفع يده الصغيرة، فتح كفه، وبدت فيه أوراق عشب ذابل. قال بصوت واهن، يكاد يختفي مع الريح:

– "جبت أكل... لماما..."

صرخ فارس:

– "لقيتوه! تعالوا بسرعة!"

ركض الرجال نحوه. رفعه أحدهم بين ذراعيه، جسده خفيف كأنه ظلّ. وصلت الأم، ركعت على الأرض، ضمته إلى صدرها وهي تبكي بحرقة:

– "ليش تركتني يا روحي؟ ليش؟!"

قال رجل:

– "اسقوه مي بسرعة."

سكبوا قطرات قليلة في فمه، لكن رأسه مال للخلف. صاح آخر:

– "بدنا شوية سكر... لازم يوعى."

ساد الصمت. الجميع يعرف أن السكر صار مفقودًا منذ أسابيع.

الأم هزته بين ذراعيها، وغنّت له بصوت متحشرج كأنها تهدهده لينام:

– "نام يا حبيبي... نام..."

فارس وقف مذهولًا، عيناه تمتلئان بالدموع، أحس أن المشهد ينهش قلبه أكثر من أي قصف سمعه.

...

في تلك الليلة، جلس فارس قرب الشمعة، فتح دفتره وكتب:

"13 كانون الثاني 2014. اليوم ضاع سامي، ليس في البحر ولا في الحرب، بل في شوارع مضايا. ساقه الجوع إلى العشب اليابس، وعاد نصف حيّ إلى حضن أمه. لكننا عدنا جميعًا أكثر موتًا. فهمت أن الجوع لا يقتل فقط... بل يتيه بنا، يجعل الأطفال يهربون من بيوتهم بحثًا عن لقمة، كأن البيت نفسه صار قفصًا بلا مفاتيح."

ثم أغلق الدفتر ببطء، وأحس أن صرخة "ابني وينو؟" ستبقى تصحو معه كل صباح.

كلمة الكاتب

إلى القارئ الذي وصل إلى هنا...

أعتذر.

أعتذر لأن هذه الحكاية لم تكتمل كما وُلدت في قلبي أول مرة، ولم تبلغ المدى الذي حلمت به حين بدأت أكتبها. كنت أريدها رواية عن الوجع... ثم عن الشجاعة... ثم عن الخلاص. لكن ما جرى في الواقع كان أكبر من كل الحروف، وأقسى من قدرة أي قلم على الاحتمال.

ليس لأنني ترددت في الكتابة، بل لأنني لم أستطع أن أتحمّلها أكثر.

كل سطرٍ كان يفتح جرحًا،

وكل فصلٍ يعيد لي وجوهًا غابت ولم تعد.

كتابة هذه الرواية لم تكن عملًا أدبيًا فقط،

كانت عبورًا في ذاكرةٍ مثقلة بالموت والجوع والخوف.

كنت أكتب وأرتجف، لا لأنني أخاف من الكلمة،

بل لأن كل كلمة كانت تذكيرًا في المذابح التي ما زالت تعيش فينا.

أحيانًا لا يكمُل النص لأن الكاتب ينهار قبله.

وأنا انهرت.

لكنّي أؤمن أن الحكاية لا تموت بتوقف القلم،

بل تنتظر أن يُكمِلها زمنٌ أرحم.

واليوم، بعدما أشرقت سوريا في 8 كانون الأول 2025 على فجرٍ الحرية،

أعدكم أن أعود يومًا،

لأكتب ما تبقّى من الذاكرة...

ما بعد البكاء، وما بعد مضايا.

– الكاتب